



# العرب والمضارة الأوروبية

محمد مفيد الشوباشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب





المكتبة الثقافية

٣١٧

## العرب والحضارة الأوروبية

---

محمد مفيد الشوباشي



---

طبعة ثانية

١٩٧٥

---

---

## تزاوج الثقافات

---

**ما** من نهضة حضارية ازدهرت في أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب، الا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارية خارجية وفدت عليها ... ويتوقف مبلغ ذلك الازدهار على وعي الأمة التي تلقت الحضارة الخارجية، وعلى أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، ومدى استعدادها لتلقى تلك الحضارة . ولا غرابة في ذلك فان نهضة أى بلد لا تنشأ من العدم كما تنشأ المدن الساحرية ، ولا تزدهر دون أن تتوفر لها أسباب العمران ، ولا تبلغ أوجها منعزلة عن غيرها من النهضات ، وانما تنمو متأثرة بها ، متفاعلة معها . . . وليس التطور الحضارى العام الا ثمرة نشاط البشر المتبادل المتفاعل .

وقد يسأل سائل : كيف نشأت اذن أول حضارة في التاريخ ما دامت نشأة الحضارة لا تتيسر الا اذا تزاوجت بنهضة أخرى أجنبية عنها ؟ ...

لا محيص من أن تكون الإجابة عن هذا السؤال  
افتراضية ، لأن أحدا ممن عاشوا فيما قبل التاريخ لم يثبتنا  
بحقيقة ما حدث في أغسوار العصور المظلمة التي انبثقت  
البشرية خلالها . بيد أننا لن نشط وراء الخيال . وسيرى  
القارئ أن صدق اجابتنا يمكن ادراكه بالبداهة .

ان أول شعاع للوعى الانسانى بزغ فى ذهن الانسان  
الهمجى ضئيلا ، وتطور بطيئا كتطور الانسان من المرحلة  
شبه الحيوانية الى المرحلة الانسانية . وكانت كل فكرة  
يوحى بها الواقع الى ذلك البدائى تبدو فى ذهنه غير واضحة  
حتى يطبقها ، فاذا التطبيق يقومها ويزيدها وضوحا ، واذا  
مبادلتها مع غيره يطورها ويجلوها ويمهد السبيل لتولد  
غيرها وتطورها . . . وما تعاونت عقول الأفراد الأول على تفهم  
الواقع ، وأدى تزاوج أفكارها الى ازدياد الوعى البشرى  
الناشئ ، وتحسن الانتاج البدائى حتى أخذ ذلك الفكر  
النامى ينتقل بين الجماعات والقبائل المتكاثرة ، ويتزاوج  
بما يصادفه من فكر جديد ، ويتوالد ويكبر ويعمل على  
تحسين الانتاج المحلى أو المقتبس من الخارج . . واستمر  
هذا التطور التدريجى لفهم الجماعات البدائية وانتاجها  
حتى وصل الى مرحلة جديدة حاسمة لدى أول أمة  
تخطت العصر القبلى القديم الى العصر الزراعى . - ومن ثم  
نشأت أول حضارة فى التاريخ .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن هذه الحضارة الأولى  
نشأت فى ربيع وادى النيل ، وأن فيضان هذا النهر



العظيم كان أهم عامل فى سرعة ازدهارها ؛ ذلك أن المصريين القدماء لم يتجهوا بآدى الأمر الى دراساتهم الفلكية والرياضية الا ليعرفوا موعد ذلك الفيضان على وجه الدقة ، فيعدوا الأرض للزراعة ، ويبذروا البذور فى الوقت المناسب . ثم انهم تعلموا مقاييس الأطوال من قياس مناسيب ارتفاعه ، وتعلموا الموازين والمكاييل من محاولة تحديد كميات المحاصيل . . . ونكتفى بما تقدم على اقتضابه حتى لا نبتعد عن موضوع هذا الكتاب .

وتتزوج ثقافة بلد من البلاد بثقافة أجنبية عنها اما عن طريق الوفاة ، أو عن طريق الاجتلاب .

والوفاة تحدث بالغزو على الأغلب ، أو بالتجاور والتبادل التجارى ، أما الاجتلاب فيحدث عندما ينمو وعى أمة ما تهيأت لها ظروف اليقظة الفكرية ، فاشترأبت الى البلاد الأخرى تنقل عنها علومها وفنونها ومختلف أسباب نهضتها . . . وكثيرا ما تنتقل الحضارة سالكة هذين الطريقين معا ، وذلك حينما يغزو الغزاة بلدا من البلاد ، ويتغلبون عليه بفنون عسكرية مستحدثة ، وعدة حربية مبتكرة ، ويسوسونه بأساليب جديدة ، فيوقظ ذلك وعى أهله ، ويحفزهم الى تلقى علوم الغزاة وفنونهم ، ثم اجتلابها من مصادرها حتى بعد زوال غمة الاحتلال .

واذا نظرنا الى حضارات الأمم القديمة المتجاورة التى تعدد غزو بعضها لبعض نجد التشابه بينها وثيقا الى حد

يكاد يجزم بتزاوجها . فالمعابد والتماثيل والأضرحة  
الأثرية وغيرها من الآثار الحضارية والتقاليد التي جالدت  
الزمن في الهند والصين واليابان وجزر الهند الشرقية  
وما جاورها من بلاد الشرق الأقصى تكاد تتجانس . .  
وكذلك تتشابه ديانات تلك البلاد وتقاليدها وثقافتها  
تشابها لا يتوفر الا بالتلقن أو الاقتباس . وتدل آثار  
آشور وكلدية وبابل على أن مبدعيها تأثروا بفنون كل من  
الحضارة الآسيوية ، وحضارة مصر القديمة . . . ولا  
عجب فقد كانت تلك البلاد الواقعة بين آسيا ومصر مرتادا  
لجيوشهما ولقوافل التجارة المتبادلة بينهما .

ويرى مؤرخو الغرب أن الحضارة الأوربية الحديثة  
وليدة الحضارة الاغريقية فغزو الرومان لغرب أوروبا ، وغزو  
النورماندين لانجلترا ، وما تبع ذلك من غزوات ، أيقظ  
وعى الشعوب في تلك الأصقاع ، ولفتها الى ثقافة الغزاة،  
فأقبلت على المصنفات اللاتينية التي كانت تعكس الفكر  
الاغريقي ، ونهلت منها ، وغذت لغاتها الأصلية بفيض من  
كلماتها . وتهيأت بذلك للنهضة الحديثة التي بدأت كما  
يقول أولئك المؤرخون بسقوط القسطنطينية ونزوح علماء  
الاغريق الى غرب أوروبا مزودين بمزيد من المؤلفات  
الاغريقية .

ونحن نسلم لهؤلاء بأن اثر الثقافة الاغريقية كان  
فعالا في حركة نهوض أوروبا خلال العصر الوسيط . ولكننا  
ننكر أن الفكر الاغريقي هو الذي عاونها على الخروج من



ظلمات ذلك العصر ؛ واطلع فجر نهضتها الكبرى ، وأذان  
بانبثاق العصر الحديث . ونقرر مع المنصفين من المؤرخين  
الغربيين ، وهم قلة ، أن تيار اليقظة الاوربية ابتعد  
فجأة عن الموارد الاغريقية - أو ابتعد جانبها الرئيسى عنها -  
وعرج ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى على الموارد  
العربية . ومن ثم ظهرت فى أوربا بوادر نهضة علمية  
أدبية ذات خصائص جديدة شبيهة بخصائص ثقافة  
العرب . فكيف تم ذلك ؟ وما هى النتائج التى ترتبت  
عليه ؟ ان الرد على هذين السؤالين هو موضوع كتابنا  
هذا .



لم يكن القادة والملوك الهمج يدعون الدعوى حين  
يشنون غاراتهم على البلاد الأخرى . فقد كان قصدهم  
منها سافرا ، وهو النهب والسلب ، وتوسيع دائرة الملك  
والسلطان ، وتحقيق الأمجاد . ولكن الفتوحات الاسلامية  
شدت عن هذه القاعدة لأول مرة فى التاريخ ، وتوخت  
تحقيق رسالة تسمو على مجرد الغزو والفوز بالأسلاب  
والأمجاد . . . . كان الهدف الأول لتلك الفتوحات نشر  
الاسلام ، وتلقين الناس تعاليم النبيلة ، وهدايتهم الى  
مقاصده الجليلة . ولهذا لم تنحسر هذه الفتوحات ويتبدد  
آثرها كغيرها من غزوات الهمج ولم يبطىء تزواج حضارتها  
بحضارات الأمم المفتوحة كما كان يحدث قبلها . فالحماسة  
التي كان العرب يغرسون بها بذور علومهم وآدابهم وفنونهم  
فى الأمم التى فتحوا بلادها جعل الغرس يسرع فى نموه



على مر الحقب ٠٠ وقد بلغ ذروة نمائه حين انتقل من  
الأندلس الى أوربا ، واختلط بالثقافة الأوروبية ، فتمخض  
عن حضارة العصر الحديث .

لقد ظهر أثر حضارة مصر القديمة واضحا في بلاد  
الشرق الأوسط التي تعرضت لغزو الفراعنة . وكذلك  
ظهر أثر حضارة الاغريق في البلاد التي ارتادتها جيوشهم  
ولكن الخيم الذي عم تلك البلاد نتيجة للغزو المذكور لم  
يتوفر لها عن قصد ، وانما توفر عرضا ، فكان نعمة  
تولدت عن نقمة . أما الفتوحات الاسلامية فتختلف عن  
مثل تلك الغزوات ، لأنها استهدفت من أول الأمر نشر  
الثقافة الاسلامية ، ووضعت هدفها هذا نصب عينيها ،  
فأنتج ذلك نتيجة المرتقة ، وهي عمق أثر تلك الفتوحات  
بل لقد تمخض آخر الأمر عن الحضارة الاوربية التي  
بلغت اليوم ذروة لم تكن متوقعة . ونحن لا ننفردها بهذا  
القول ، ولا نميل فيه مع الهوى ، فقد سبق اليه قوم ليسوا  
شرقيين وليسوا مسلمين ٠٠٠ بيد أننا لن نكتفى هنا  
بترديد أقوال هؤلاء ، وانما سنقدم في ثنايا الكتاب أدلة  
على صحة قولنا ، جديرة بتدبر المنكرين .

لم تجرؤ البلاد المتحضرة ، بعد الفتوحات الاسلامية ،  
على شن حروبها التوسعية الاستغلالية دون أن تبررها  
بدعوى استهداف أهداف انسانية أو حضارية . وقد  
وضح ذلك أول ما وضح في حروب نابليون التي اكتوت  
مصر بنيرانها قبل غيرها من البلاد ٠٠ ألم يدع هذا



العسكري الطموح أنه قصد بها نشر مبادئ الثورة الفرنسية والقضاء على القوى الرجعية التي تحاول خنق تلك الثورة وهي في مهدها ، وتقويض نظام الاقطاع المعيق للتطور الحضارى ؟ بيد أن سيرة نابليون تدلنا على أن هذه الأهداف كانت ثانوية في نظره ، أما هدفه الرئيسى من غزواته فكان انشاء امبراطورية عالمية يتسلط عليها بتنصيب اخوته وأقربائه و ( ماريشالاته ) ملوكا وحكاما لمختلف بلادها . . . ولكن أطماع نابليون الشخصية لم تحل دور تمخض حروبه عن نتائجها المرموقة ، وهي تقويض أركان الاقطاع بالفعل ، وازدهار النظام الرأسمالى الناشئ ؛ وتقارب الدول الأوربية ، وتزاوج ثقافاتهما ، وتحول آدابها وفنونها الى اتجاهات جديدة ، وسرعة تطورها .

ومن الواضح أن غزو نابليون لبلادنا أيقظ وعينا ، وحدا بنا الى التطلع للثقافة الغربية التى نهضت بأوربا ، ومكنتها من صنع الاسلحة الفتاكة التى قهرتنا وقتذاك ، فأخذنا نغترف من معين علومها وآدابها أملا فى اللحاق بها ومنافستها فى ميدانى العلم والأدب . . .

ومن الواضح كذلك أن هذه النتيجة لم تخطر ببال نابليون قط ، فالسبب الذى دعاه الى افتتاح حروبه الطاجنة بغزو بلادنا هو فتح بلاد الهند كما هو معلوم ، وانتزاعها من برائن انجلترا التى كانت تستمد منها أسباب الثروة والتموة والسلطان . أما اصطحابه لبعض مواطنيه من أهل العلم والفكر الى مصر ، فلم يكن القصد منه تلقيننا علوم



الغرب وفنونه ، ولكن دراسة مصر على نحو يمكن فرنسا من استغلالها أو الافادة من احتلالها على أفضل وجه . ولا يحتاج هذا كله الى الافاضة في شرحه ، وإقامة الأدلة على صحته . فهو معلوم ومسلم به .

وأحدث غزو نابليون لأسبانيا أثرا شبيها بالآثر المتقدم الذكر ، اذ استيقظ الوعي القومي هناك على ذق طبول الحرب ، وهب الشعب الأسباني مدافعا عن مصالحه الوطنية ، وعن حرّيته وكرامته ، وخاضت الآداب والفنون ميدان الكفاح مع الشعب في سبيل احقاق حقه في التمتع بحياة أعز وأفضل . ولم تلبث أن ازدهرت نهضة أدبية فنية يعرف أدباؤنا من ممثليها : « جويا » في ميدان الفن ، و « يلاسكو ايبانيز » في ميدان الأدب .

وحدث في روسيا القيصرية نفس الأمر بعد غزو نابليون لأراضيها ، فلم يكد القرن التاسع عشر يقترب هناك من منتصفه حتى صار المجتمع الروسى المثقف أشبه بالمجتمع الباريسى ، لفرط محاكاته له في جميع المظاهر الحضارية وخضع الأدب أول الأمر لذوق هذا المجتمع المقبل عليه ، وأخذ يحاكي بدوره الأدبين الفرنسى والألمانى ، وعندما نما وتجاوز عهد الطفولة والمحاكاة بدأت مقومات شخصيته تظهر شيئا فشيئا حتى تغلب على حاجته الى المحاكاة ، وظهر لونه القشيب الذى يمثله انتاج جوجول وبوشكين ثم دوستويفسكى وتولستوى وغيرهم .



وابتلى العالم بعد حروب نابليون بالحروب الاستعمارية  
وقد ادعت الدول التي شنتها كذلك أنها لم تقصد من ورائها  
الا نشر حضارة الرجل الأبيض في البلاد المتخلفة . ونحن  
هنا في الشرق نعلم مبلغ افتراء أولئك المستعمرين على  
الحقيقة ، فقد وضح بعد احتلالهم للبلاد التي ادعوا  
الرغبة في معاونتها على الأخذ بأسلوب الحضارة أنهم لم  
يقصدوا غير استغلالها ، ومن الطبيعي أن يدفعهم قصدهم  
هذا الى السعى لابقاء تلك البلاد في وهدة التأخر حتى  
يضمنوا استمرار استنزافهم لموارد خيراتها . وهكذا عملوا  
على عرقلة نموها وازدهارها من حيث ادعوا أنهم يعملون  
على رفع مستواها المادى والمعنوى ، وقد أطلقوا ارساليات  
التبشير في كل بلد يطمعون فيه ، وسخروها في التمهيد  
لاحتلاله ، وفي اخضاع أهله لهم فكريا قبل اخضاعه  
عسكريا وسياسيا . . . . . واذا كان العرب قد فتحوا الأمصار  
للتبشير بدينهم الحنيف ، فان المستعمرين بشروا بدينهم  
ليفتحوا الأمصار . وترتب على ذلك أن وجدت الأمم التي  
دخل العرب بلادها منها من الثقافة العربية متاحا فروث  
منه ظمأها الى المعرفة ، وقفزت في طريق الصعود قدما ،  
على حين بذلت الدول الاستعمارية التي تدعى معاونة الأمم  
المتخلفة في ميدان الاقتصاد والثقافة ، قصارى ما في وسعها  
للحيلولة دون تقدمها في كل ميدان .

واذا كان جهود المستعمرين في تلك السبيل قد  
أسفرت في بادئ الأمر عن تأخير حركة التطور في



مستعمراتها ، فانها لم تستطع أن توقفها . وسرعان ما أيقظ الاستغلال والاستبداد وعى الشعوب التي وقعت في براثنها ، ونشطت حركة مقاومتها لها ، واشتد نضالها في سبيل استرداد حريتها المسلوبة ، وحقوقها المغتصبة ، الى أن دبت الحياة في أوصال ثقافتها التي ما كادت تقوى على المجالدة حتى اقتحمت ميدان النضال السياسي لتأييد حركة التحرر ؛ وكان من الطبيعي أن تستمد تلك النهضة الثقافية الناشئة ، في مثل تلك الحال ، أسباب ازدهارها من ثقافة المستعمرين وغيرهم من الأجانب ، وأن يحدث التزاوج بين تلك الثقافات أثره رغم الحوائل والسدود .



ان الحضارة لا تنتقل من بلد الى بلد كما ينتقل المصباح الذي يضيء كل مكان ينتقل اليه دون أن يعتوره هو نفسه أى تبدل . ولكنها ترسل شعاعها الى البلاد الأخرى فيستضيء بنورها كل بلد هيأته ظروفه لرؤية ذلك النور . وهي تكتسب أينما حلت قوة وحيوية مستحدثتين ، وخصائص مستمدة من مميزات أهل البلد الذي تؤثر فيه وتتأثر به في تفاعل متوال مستمر ، ولا تلبث أن تلخذ طابعا جديدا متولدا من ذلك التفاعل .

والحضارة في كل حقبة معينة تبلغ في بلد من البلاد مستوى من الازدهار لا تبلغه في غيره؛ وتنتقل فيه من مرحلة تقدمية الى مرحلة أبعد منها تقدما ، وقد بلغت في مصر



القديمة أعلى مستوى عرفه ذلك العصر ، ثم أرسلت نورها  
الى ما حولها فاستضاءت به البلاد المجاورة . وكانت بلاد  
الاغريق مهياة أكثر من غيرها للاهتداء بذلك النور . ولم  
تلبث أن ورثت مشعل الحضارة عن مصر فازداد في يدها  
توهجا . بيد أن هذا المشعل لم يحدث أثره الفعال على  
الفور حين انتقل منها الى غرب أوروبا حسبما يزعم أغلب  
المؤرخين الأوروبيين ، ولكنه أحدث ذلك الأثر بعد أن عرج  
على بلاد العرب فانتسب منها نورا على نور ، بل ازدان  
بمقومات وخصائص جديدة هي التي أمدته بالقوة الخارقة  
الدافعة ، ومكنته من فتح سبيل الانطلاق الحضارى أمام  
أوروبا الغربية ، ومن دفعها الى أمام .

وهناك من يظن أن أمة العرب كانت غير متحضرة  
حينما اغترفت من ثقافة الاغريق . والواقع انها كانت  
قبل ذلك ذات حضارة مرموقة استمدت أسسها من حضارتين  
عريقتين سابقتين على الحضارة الاغريقية هما حضارتا  
الفرس والمصريين القدماء، وكانت الحضارة الأولى تتجلى  
فى أبهى مظاهرها وراء حدود العرب الشرقية مباشرة ،  
فلم يتعذر على هؤلاء أن يغترفوا من ذخائرها ما يلائمهم  
ثم انهم تلقوا الحضارة المصرية عن طريقين تجسارين :  
أولهما طريق الحبشة فاليمن ، وثانيهما طريق طور  
سيناء وفلسطين . وهكذا أصبحت لهم حضارة عربية  
الصبغة ، نبتت فى الأصل من بذور الحضارتين المذكورتين  
فلما اغترفوا من معين الثقافة الاغريقية - وكانت متأثرة



الى حد كبير بالثقافة المصرية القديمة - لم يجدوا صعوبة  
فى استيعابها وهضمها ، ولم يعدوا القدرة على مزجها  
بثقافتهم ، وطبعها بطابعهم ، ولم يلبث هذا المزيج الثقافى  
أن تمخض عن حضارة عربية أعلى مستوى ، وأجد ظابعا  
من سابقتها . ولزيادة الأمر ايضاحا نقول : ان العرب  
تأثروا بالحضارة المصرية القديمة التى كانت منتجاتها  
وثقافتها تزحف اليهم عن طريق الحبشة وطريق الشام ،  
ثم لم تلبث الحبشة والشام أن تضررتا أيضا متأثرتين  
بالحضارة المصرية ، وحملت القوافل التى تنقل آثار الحضارة  
المصرية الى الجزيرة العربية ، آثار حضارتيهما  
أيضا . وبدأت بذور تلك الحضارات المختلفة تثمر فى  
الجزيرة وتنتج حضارة جديدة مطبوعة بطابعها . . .

وانتقلت الحضارة المصرية كذلك الى فينيفيا . ثم الى  
اليونان القديمة عن طريق فينيقيا . وتفجر ينبوعها فى  
تلك البلاد فأنتج الحضارة الاغريقية التى بهرت العالم ،  
وامتد نورها الى البلاد المجاورة . . ومن بينها البلاد  
العربية . . وبذلك يمكن أن نقول ان بقايا من حضارة مصر  
القديمة انتقلت هذه المرة أيضا الى العرب . . ولكن عن  
طريق اليونان القديمة بعد أن تكيفت هناك تكيفا جديدا ،  
وكان العرب مهئين لاستقبالها خير تهيؤ ، وقادرين على  
تطويرها من جديد ، وطبعها بطابعهم ورفعها الى مستوى  
حضارى أرقى من مستوى حضارتى مصر واليونان القديمتين  
كذلك تلقت أوروبا الغربية الفكر الاغريقى وتأثرت  
به . ولا يزال أغلب مؤرخى الغرب يرون حضارتها الحديثة

تولدت من تلك الثقافة ، فاذا ووجهوا باثر العرب في  
بناء حضارتها المذكورة أنكروه كل الانكار ، زاعمين أن  
فضل العرب - ان كان للعرب فضل - يقتصر على اسهامهم  
في صيانة التراث الفكرى الاغريقى من عصف السنين،  
ونقله سالما الى الغرب .. ولكننا سنضطلع في هذا الكتيب  
بالتدليل على أن الحضارة القديمة حين انتقلت - خلال  
طوافها المتلاحق - من بلاد الاغريق الى الجزيرة العربية ،  
سمت في هذه الجزيرة الى مستوى حضارى جديد ،  
واتخذت طابعا عربيا مميزا كان له هو الأثر الأقوى في  
تحويل التيار الفكرى الأوربى من الوثنية الاغريقية الى  
الاتجاه الانسانى المذهب ، وتمكينه من اقامة صرح الحضارة  
الحديثة .. ولا ينفى هذه الحقيقة التى سنقيم الأدلة على  
صحتها ، تسليمنا بأن الحضارة الغربية تأثرت في وقت  
ما بالحضارة الاغريقية ، واستعانت بها على النمسا  
والازدهار .



ان أثر التزاوج الثقافى يبدو اليوم واضحا فى كل  
بلد من بلاد الارض ، وهو يتم فى الوقت الحاضر دون  
حاجة الى هجرة القبائل ، أو غزو الغزاة ، أو الى تجار  
ينقلون مختلف الثقافات مع بضائعهم ، فالأمم تسعى اليه  
فى العصر الحديث عن قصد راغبة فيه ، مدركة لأهميته،  
بعد أن كان يحدث عفوا ، وبطرق لم تكن تستهدفه أصلا  
ومن المعروف أن وسائل المواصلات التى ربطت الدول بعضها



ببعض ، ومختلف الاختراعات التي تنقل ثمار الفكر البشري على متن الأثير قبل أن تنقلها الكتب والصور والملحف والأفلام ، مكنت التزاوج الثقافي من أن يخطو خطواته الأولى في سبيل الامتزاج الشامل العالمي ، ونحن نرى الآن كيف أن أى اختراع ، أو أية فكرة يبرز نورها فى أى بلد من البلاد تتلقفها البلاد الأخرى ، وتدخل عليها التحسينات وتطورها ، وتولد منها أفكارا أخرى على نحو يستثير الإعجاب والعجب .

وإذا كانت ثقافات الدول الغازية قد قامت فى الزمن القابر بعملية غزو معنوى لثقافات البلاد المعتدى عليها فضلا على الغزو المادى ، فإن مثل هذا الغزو المعنوى الذى يستهدف تدمير القوى الروحية المناهضة للاستعمار يتعذر حدوثه فى هذا العصر الذى نما فيه وعى الشعوب ، وقويت روحها الوطنية حتى أصبحت حصنا يستحيل على القوى الاستغلالية اقتحامه رغم ما تبذله ، حتى فى هذه الأيام ، من دعايات مغرضة مصبوبة فى قوالب ثقافية .

ولا نكران أن الأمم التى تسير فى أول الطريق الحضارى تحتذى الأمم المتقدمة عليها فى ميادين الأدب والفن والعلم ، ولكنها عندما تتمكن من تحصيل قدر معين من الثقافة ، وبلوغ مستوى معين من الوعى ، تظهر مقومات شخصيتها بعد تخطيها مرحلة المحاكاة، ويتحول إنتاجها الأدبى والفنى الذى يحتذى غيره الى إنتاج أصيل يعبر عن أفكارها وخلقاتها ، ويمحص مشكلاتها ، ويعكس نقائص الواقع

المحيط بها ، ولا تلبث أن تبني لها صرح حضارة قومية مطبوعة بطابعها الخاص ، وإن كانت عالمية الأساس .

إن الحضارة الحديثة لم تزدهر على هذا النحو الحاضر الباهر إلا بتزاوج حضارات الأمم المختلفة على مر التاريخ . والتبادل الثقافي اليوم بين مختلف البلاد هو الكفيل باطراد تقدم الأمم ، وتطور الحضارة العام ، فلا غضاظة على بلد يستعين ببلاد أخرى في ميادين العلم والأدب والفن ليحقق ازدهاره ، ما دامت الحضارة الحديثة نتيجة لجهود الجميع ، ومن ثم ملكا للجميع .



---

## الإغريق والحضارة

---

**إذا** صح أن حضارة أوربا الحديثة نبتت من بذور الحضارة العربية القديمة فكيف نعلل غفلة الكثرة الغالبة من مؤرخي الغرب ومفكريه عن هذه الواقعة ، أو انكارهم لها ، وتمسكهم بأن أوربا مدينة بحضارتها ، من فرعها الى قدمها ، للفكر الاغريقي دون غيره ؟ ... من العنت أن نتهم أفراد هذه الكثرة جميعهم بالتعصب أو الجهل ، فكم من عالم ألمعى بينهم ينقب عن الحقيقة مخلصا ولا يخونها لجاء أو مال ... فما تعليل موقف أولئك العلماء اذن من الحضارة العربية التي لا يكاد الانسان ينكض عنها غبار التاريخ حتى تتجلى روعتها ، ويبدو فضلها على الحضارة الغربية واضحا غير منكور ؟

لعل عذرهم في ذلك أنهم حين ينظرون الى أدب بلادهم - والأدب من أهم عوامل التطور الحضارى وأشدّها أثرا - يجدون قسما غير قليل منه يعكس قسما من الأدب الاغريقي

أما قسّمات الأدب العربى فلا يبدو فى أدبهم أثر منها برغم أنها تغلب فيه على القسّمات الاغريقية ، ويرجع ذلك الى أن الأدب الاغريقى القديم يبدو متميزا واضح المعالم لقارىء هذا العصر نظرا لوثنيتة البعيدة العهد ، فى حين أن الأدب العربى انساني طبيعى من نوع الأدب المعاصر ، ومن ثم لا يفتن الى أثره فى الأدب الحديث الا الملم بدقائقه . . ومؤرخو الغرب غير ملمين بها . . ثم ان بعض كتاب الغرب لا يزالون يعيدون صياغة بعض المسرحيات والمنظومات القصصية الاغريقية، محتفظين لها بروحها واتجاهها الفكرى وأسماء أشخاصها وأماكنها . وهكذا يحتفظ بعض الانتاج الأدبى الأوروبى بتراث الاغريق الفكرى ، ويعكسه واضحا دون مواربة .

ويعرف حتى أنصاف المتعلمين فى أوربا أسماء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الاغريق الذين يعاد طبع أعمالهم الفلسفية الى اليوم ، ويكثر الاستشهاد بها ، وقد ظلت فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو مهيمنة على العقول فى أوربا الغربية طوال العصر الوسيط ، واعتنقها رجال الكنيسة رغم وثنيتها ؛ وحرّموا على المفكرين مناقشتها ، بله تفنيدها ، فامتدت لها جذور ، ورسخت أصول لم يسهل على الزمن أن يعصف بها ، وقد تولدت منها مذاهب مستحدثة فى علم الفلسفة والنقد ، وظل الأصل مع ذلك متشبثا بالبقاء . أما من الناحية الأخرى فقد استضاء بعض فلاسفة الغرب بالفلسفة العربية ، واقتبسوا بعض



كشوفها وطوروها ، ونسجوا منها مذاهب متكاملة دون أن  
يشيروا الى الأصل العربى الذى اقتبسوا منه . وهكذا ظهر  
لفرع ناميا متشعب الأغصان على حين ظلت الجذور خافية  
عن العيان فى أغوار التاريخ .

ثم ان تماثيل الاغريق وغيرها من تراثهم الفنى لا تزال  
تستثير اعجاب هواة الآثار الفنية ، وتشحن خيالهم ، على حين  
خلت حياة العرب الفنية من مثل ذلك الانتاج الفنى الذى  
حالت كراهية العرب للأوثان دون ازدهاره .

فلا عجب، اذا خيل للمتعجل فى الحكم أن الحضارة  
الأوربية الحديثة وليدة الحضارة اليونانية وحدها ، مادامت  
شواهد هذه الحضارة الأخيرة هى التى تبدو واضحة  
— كما قلنا — فى مختلف ميادين الأدب والفن الأوربية .



تولدت الحضارة الاغريقية من الحضارة المصرية  
انقديمة ، كما قلنا . . . ولا مجال هنا للتدليل على صحة  
هذه الواقعة التاريخية الكبرى . ويكفى أن نشير الى أن  
أغلب مفكرى الغرب اعترفوا بها ضمنا حين قرروا « أن  
مصر مهد الحضارات جميعا » . . .

كانت حضارة مصر القديمة حضارة زراعية ، أو بتعبير  
أدق ، حضارة متولدة من أوضاع مصر الزراعية وقتذاك .  
فلما هبت نسائهما على اليونان القديمة تأقلمت هناك ،  
واكتسبت طابعها الجديد من أوضاع تلك البلاد .

كانت « المدينة » هي شكل الدولة وقوامها هناك ،  
وكان نظام الرق هو السائد ، فخلعت الحضارة المصرية  
حينما استقرت في تلك المدن بردها الريفى ، أو الزراعى  
وتجملت ببرد المجتمع المرفه المستمرى للبطالة ، المتكل  
فى معاشه على عمل عبيده وأرقائه . . . مجتمع لا يتوسل  
الى آلهته أن توفر له الماء لرى أراضيه ؛ وتنقذ ررعه من  
الآفات ، وتوفر له كل أسباب الترعير والازدهار ، ولكنه  
يتوسل اليها أن تحل له مشكلات حياته المدنية ، وتعينه على  
التنكيل بأعدائه ، وتنقذه من الشرور المقدرة له ، وتخضع  
له حبيبته ، وتيسر له كل أسباب المتع والملذات . . . وقد  
ترعرع الفكر اليونانى حقا فى عالمى الفلسفة والادب ، ولكنه  
ظل - على الأغلب - محلقا فى سباحات الأحلام والتأملات ،  
لأنه لم ينزل الى ميدان العمل ، ويحتك به ، ويكتسب  
منه الواقعية الصادقة . وأنى له ذلك وأهل الفكر والادب  
يحتقرون العمل لأنه مهنة العبيد ، ويزدرون الواقع بالتبعية  
ولا يرون جمالا فسموا فكريا الا ما يتولد عن التأمل  
المجرد . . . وما من شك فى أن فلسفة الاغريق وأدبهم  
أسهما بقسط كبير فى بناء حضارة أوربا الغربية ، ولكنهما  
لم يضطلعا بهذه المهمة - كما يزعم الزاعمون - منذ عهد  
أحياء العلوم فقط ، ولا يرجع اليهما قط الفضل الأول  
فى خروج أوربا من ظلمات العصر الوسيط الى أضواء  
العصر الحديث . . . ألم يسودا أوربا حتى فيما قبل العصر  
الوسيط ؟ وظلا يسودانها مابقى ذلك العصر ؟ فلو أن  
تلك القدرة كانت لهما حقا فلماذا طال العصر الوسيط هذا



الطول على حين كان مستضيئا بنورها ؟ ... لقد زحف  
الفكر الاغريقى الى أوربا الغربية مع الزحف الرومانى ، ثم  
حمل العرب اليها نفحات جديدة منه مشبعة بالروح العربى ،  
ثم حمل علماء القسطنطينية الذين نزحوا الى الغرب بعد  
سقوط مدينتهم آثارا أخرى منه . فلماذا بدأت بشائر  
نهضة أوربا الحديثة منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ؟  
.. كيف لا يكون هناك عامل آخر مرهون بهذا الوقت  
بالذات ، حفزها الى النهوض ؟ ... اننا نزعم أن هذا العامل  
موجود فعلا ، وأنه الحضارة العربية التى انتقلت الى أوربا  
من الأندلس ، ومن بلاد عربية غير الأندلس فى الميعاد المشار  
اليه بالذات ، أى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ..  
انتقلت الى أوربا وقتذاك فنقلتها من مرحلتها التطورية  
الوسيلة الى مرحلتها التطورية الحديثة .



كان فكر الاغريق وأدبهم ينشران فى أوربا ، خلال  
العصر الوسيط ، باللغة اللاتينية التى لم يكن يلم بها  
الا قلة من المثقفين أغلبهم من رجال الكنيسة ، وكان فريق  
من هذه القلة يتعصب لأفلاطون ، وفريق آخر يتعصب  
لأرسطو الى الحد الذى لم تستطع معه حتى المسيحية أن  
تحدث أثرها ، وأن تؤتى وقتذاك ثمارها فى تلك البلاد .

وظهر من بين هذين الفريقين مؤلفون عمدوا الى  
وضع مؤلفاتهم باللغة اللاتينية طبعاً ، لأنها كانت لغة  
الكتابة الوحيدة فى ذلك العهد ، وكان الجمهور الغارق فى

الجهل غير ملم بها بداهة ، فلم يتأثر بتلك المؤلفات الا عن طريق رجال الكنيسة وأتباعهم الذين كانوا يبثون مضامين بعضها في الازدهان ، وكان الناس هناك وقتئذ مسيحيين ، ولكنهم لم يتلقنوا تعاليم المسيحية الا عن أولئك الرجال الذين كانوا متشبعين بالفكر الاغريقي فصبغوا الديانة المسيحية بلونه الوثني الاسطوري . . . بيد أن الاساطير الرمزية الاغريقية ، ذات المعاني الأدبية ، والدلالات الاجتماعية والسلوكية تحولت في ذهن ذلك الشعب القارق في الجهالة الى خرافات مجردة من كل دلالة انسانية ومعنى شعري ، فزادته امعانا في ضلالات جهله . . على هذا النحو تأثرت أوروبا الغربية ، خلال العصر الوسيط ، بحضارة الاغريق .

ان الأدب الأوربي الوليد وقتذاك لم يكن اذن يعكس نشاط مجتمعه الفكري والعاطفي والمادى ، ولكنه كان يحاكي بلا وعى ، أو بوعى بدائى قاصر ، أدب الاغريق الأسطوري وهل من عجب في ذلك ؟ ألم يكن معزولا عن الشعب ؟ ألم تكن حتى لغته غريبة عن الشعب ؟ فكيف يتأتى له أن يتأثر به ويعبر عن أفكاره وخوالبه ؟ . . ولكن الحال بدأت تتحول حين اتجه التفكير الى التعبير عن ألوان النشاط الفكري والعاطفي باللغة المحلية .

ففى عام ١١٦٥ أقدم الشاعر الفرنسى « بينيت دى سان مور » على ترجمة « قصة طروادة » من اللاتينية الى الفرنسية وحافظ على شكل الأصل فترجمها شعرا وقدم



لها بمنظومة هذه ترجمتها : « لهذا أريد أن أشرع فى نظم  
ملحمة وجدتها مكتوبة باللاتينية . . وسأواصل ترجمتها  
طالما أسعفتنى الموهبة والقدرة . . وغايتى أن يتمتع بقراءتها  
كل من يجهل اللغة اللاتينية » .

بهذا العمل الأدبى فتح « دى سان مور » باب ترجمة  
المؤلفات الاغريقية ، المكتوبة باللاتينية ، الى الفرنسية .

وما كثرت الأعمال الأدبية التى نشرت يومذاك  
بالفرنسية ، وتزايد عدد قرائها حتى نزاع بعض أهل  
القلم الى تأليف منظومات قصصية على غرارها . . ثم تخطوا  
مرحلة المحاكاة شيئاً فشيئاً ، وحاولوا أن ينتجوا أدباً  
أصيلاً يعكس واقعهم ، بدلا من الاعتراف الاعمى من أدب  
الاغريق ، أو التوليد منه . . وقد أعوذتهم نماذج من الادب  
الانسانى الواقعى يسترشدون بها وهم يخطون الخطوات  
الاولى فى هذا الصدد لتحقيق بغيتهم . . . وفى هذا الوقت  
بالذات واتتهم الفرصة السعيدة ، وزودهم « الشعراء  
التروبادور » أو الشعراء المنشدون الاندلسيون بذلك اللون  
المنشود من الأدب . وهو اللون الذى تميز به الادب العربى  
قبل أن يتميز به أى أدب غيره من آداب العالم .

واذا اقتضانا هذا البحث أن نحدد تأثير كل من الادبين  
الاغريقى والعربى فى أدب الغرب فلا بد من تحديد الخصائص  
التي تميز بها كل من هذين الادبين ، وعند ذلك سيتضح  
لكل منكر كيف تحول أدب أوربا — ابتداء من أواخر

القرن الثاني عشر الميلادى - من المصادر الاغريقية الى المصادر العربية .

قلنا ان الفكر الاغريقى تأثر بنظام الرق الذى كان خاضعا له ، فاحتقر العمل اليدوى الذى اختص به العبيد ومن ثم احتقر الحياة المادية ؛ ونزح الى التجرد ، ووضح ذلك فى فلسفة أفلاطون الذى كان الوجود الواقعى يبدو فى نظره شائها حقيرا ، وكانت الافكار والمعانى المجردة هى التى تستأثر بلبه ، وتستحوذ على تفكيره . وقد امتد أثر ذلك الى الأدب الذى أغفل ، على الأغلب ، تمحيص الواقع وتحليل ظواهره ، بل أعرض عن دراسته ، وراح يحاول الخلاص من مشكلات البشر ، وتربص الأقدار لهم بالتوسل الى الآلهة ، أو بالحلول الاسطورية الخرافية . . . ومسرحية أوديب خير شاهد على صحة ما نقول .

أما الحب فقد عرفه الاغريق على نحو مغاير للنحو الانسانى الذى عرفته البشرية ، أو عرفه الفريق المتحضر المتميز من البشر فيما بعد . . . قال أحد الفلاسفة يصف حب الاغريق ، و الحب الوثنى القديم الذى ما زالت له رواسب فى بعض النفوس الرجعية الى اليوم : - « ظهر الحب الجنسى تاريخيا - لأول مرة - فى صورة عاطفة مشبوبة ، وبدا كأنه « الشكل الاسمى » للغريزة التناسلية . . . ولكننا نرى فى جميع أطوار التاريخ ، أن اقتران الزوجين لم يكن يتم بدافع الحب ، ولكن أهلها هم الذين كانوا يقررون زواجهما بدافع المصلحة على أن يتكفل الزمن



بالتقريب بينهما ، وتوفير اعتيادهما لعلاقة الزوجية ، بيد  
أن العاطفة الضحلة المتولدة من تلك العلاقة لم تكن ميلا  
ذاتيا ، ولكن واجبا موضوعيا . أما علاقة الحب المشابهة  
لما نكابد في هذا العصر فلم يظهر لها أثر في العصر القديم  
الا خارج نطاق المواطنين الاحرار ، أى لم يظهر لها أثر الا  
بين الأرقاء فهولاء هم الذين كانوا يتغنون - كما يبدو في  
الملاحم والمسرحيات القديمة - بمباهج الحب ، وعذوبة  
أوجاعه . . أما الحب في المجتمع الحر القديم فكان وليد  
الخيانة الزوجية . . كان يحبك المكائد للفوز بملذات  
الفسق . . ان الحب الجسدى الذى ساد العصر القديم ،  
وشبيهه الذى نما في العصر الوسيط لم يترعرعا في أحضان  
الزوجية ؛ ولكن في حمأة الرذيلة . وقد سبق لنا أن  
شرحنا الحب الطاهر ، حب الفروسية الذى عرفته أوروبا  
فيما بعد . . . بيد أنه لا تزال بين الحب الفاسق الذى  
يهدم الزوجية ، والحب الطاهر الذى يبنينا ويدعمها ،  
شقة طويلة لم يقطعها ذوو النفوس النبيلة الى آخر  
الشوط . . .

وبالرجوع الى قصص الاغريق ومسرحياتهم نجد  
أنها عند تعرضها للحب لا تصور منه الا ذلك اللون العتيق  
الذى فسره ذلك الفيلسوف . . . أى الحب الضحل المتولد  
من العلاقة الزوجية المفروضة على الزوجين ، والحب الفاجر  
. . حب الزوجة التى تعرض عن زوجها لتصرف الى عشيقها  
. . والعشيق الذى يقتل الزوج فيخلو له الجو ويتزوج  
عشيقتة ثم تتكرر المأساة ، فتعلق العشيقة بعد الزواج

برجل آخر يقتل زوجها الجسد ٠٠٠ ان الحب الذى  
تصوره لنا ملاحم الاغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدى  
العنيف المخيف ٠٠٠ الحب الذى تراق فى سبيل ملذاته  
الدماء ، وتزهق الأرواح ، وتقتحم الأهوال ٠٠٠ الحب الذى  
يتحرق الى القسر والأسر والاغتصاب ٠ أما الحب الانسانى  
المتبادل ٠ الحب الطاهر العفيف ٠ الحب الذى يورث  
المروعة والنخوة والنبيل ، ويدفع صاحبه الى نصره الضعيف  
ونجدة الملهوف ٠٠ ان هذا الحب الشبيه بحب العذريين  
العرب لم تعرفه أوروبا الا بعد اتصالها بالعرب ، ولم تصوره  
القصص الاوربية الا منذ ذلك الحين ٠

وكانت تصرفات الاغريق التى تصورها أعمالهم الادبية  
تتسم بالخشونة والعنف والتباهى بالقوة الجسدية ٠٠ كانت  
حروبهم مجازر ، ومصارعاتهم الرياضية مذابح ؛ وفروسياتهم  
غلظة وقسوة ، وشجاعتهم عنفا وبطشا ٠ أما الشفقة  
والرحمة والمغفرة فصفت تحقر صاحبها بدلا من أن ترفع  
قدره لأنها تدل عندهم على الضعف والعجز والجبن ٠ ثم  
انه عندما اضطلعت أعمال ذلك العهد الادبية بتصوير تلك  
الصفات والتصرفات عمدت كعادة الادب القديم الى المبالغة  
والتضخيم والتفخيم حتى أصبحت فى نظرنا أشبه بقلاع  
الأقدمين الغليظة البنيان ، ويمعابدهم الضخمة العمدة  
والجدران ٠

لم تعرف أوروبا الى ما قبيل العصر الحديث ، الا هذا  
اللون من الادب ، ثم طلعت فى كل من اسبانيا وايطاليا ،



خلال القرن الثاني عشر ، بشائر انتاج أدبي كتب بلغة  
هذين البلدين ، وتضمن لونا جديدا من الأفكار والمعاني  
بدا يتناقص المؤلفات المنسوجة على غرار المؤلفات الاغريقية  
... وظهر هذا اللون الجديد في الوقت الذي بدأ فيه  
بعض المؤلفين الفرنسيين ينشئون القصص المكتوبة  
بالفرنسية . وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق - فتزاوجت  
هذه المؤلفات المختلفة المصادر ، ونحا نتاجها منحى انسانيا  
صادقا لم تعرف أوروبا نظيرا له من قبل .

كان الانتاج الادبي الاغريقي يبالغ ، كما قلنا ، في  
تصوير الواقع ، ويضخم الميول البشرية العنيفة ، ويجسد  
الأوهام والخرافات في أشخاص آلهة الملاحم والمسرحيات  
المنظومة ، وفي الحيوانات الخرافية ويفسر ظواهر  
الطبيعة تفسيراً أسطوريا . أما الانتاج الادبي الاصيل  
الذي أخذ ينبثق في أوروبا خلال القرن الثاني عشر فقد  
حرص على تحرى الصدق في تصوير الواقع ، وفي تحليل  
العواطف الانسانية المهدبة . لقد انقلب الأدب الاوربي  
حينذاك من أدب وثني أسطوري الى أدب انساني واقعي  
فلماذا وقع هذا الانقلاب في المكان والزمان الذي وقع  
فيهما بالذات ؟ وما هي عوامل وقوعه ؟ ... ان كل منقب  
في تاريخ الآداب القديمة لا يجد شبيها لذلك الانتاج الا  
هنا في الشرق ... وفي الجزيرة العربية بالذات .

ولكن لماذا نجزم بأن هذا التغير الذي طرأ على أدب  
غرب أوروبا حينئذ يرجع الى تأثره بالادب العربي ؟ ألم

نقل انه كان اغريقى الموضوع ؛ لاتينى اللغة ، منعزلا عن الجماهير فلما طفق بعض المؤلفين يكتبونه بلغاتهم الوطنية عاد فاتصل بالجماهير ، فلماذا لا تكون هذه الصلة هى التى سددت خطاه ، وردته طبيعيا انسانيا ؟ ...

لقد ألمعنا الى الرد الماعا حين قلنا : ان ذلك التحول كان يحتاج الى نماذج يسترشدها الأدب الأوربى الجديد فى طوره الجديد ... فنظرة الى المسرحيات التى انتشرت فى أوربا بعد كتابتها باللغات المحلية تدل على أنها احتفظت على الأغلب بالاتجاهات الاغريقية القديمة ولم تختلف الا من حيث الشكل .. كانت تصور معجزات القديسين والقديسات ، على حين كانت مسرحيات الاغريق تصور دعايات للآلهة ، ورحمتهم بالناس ... ان مؤلفى غرب أوربا لم يدخلوا أى تغير على مسرحيات الاغريق اللهم الا استبدال القديسين ، والأولياء الصالحين ، بالآلهة والكهنة .

ولم يكن يسهل تبدل تلك الحال الا بهبوب نسمات منعشة من أدب متجدد الألوان .. وهذا ما كان فى ذلك الأوان ... فقد أمد الأدب العربى أوربا الغربية بالنماذج الأدبية التى كانت تحتاج اليها ، وحول أدبها الى اتجاهات جديدة كانت السبب فى انطلاقه قدما فى طريق السمو الفنى . وأقل ما يقال عن فضل العرب على الأدب الغربى ، انهم سهّلوا عليه بما تقدم سلوك سبيل التطور الطويل ، واختصروا له زمن الانتقال الى المرحلة الحضارية التى وصل اليها فى العصر الحديث فاذا قيل ان الأوربيين



كانوا سيصلون الى ما وصلوا اليه من مستوى حضارى  
سواء أعانهم العرب على بلوغ ذلك أو لم يعينوهم ، قلنا  
ان العرب أسهموا فى بناء صرح الحضارة الأوربية ، وانهم  
كانوا السبب فى سرعة بنائه . وفى ذلك فضل أى فضل .

وقد يؤخذ على قولنا المتقسم أن الأعمال الأدبية العربية  
ما كانت لتصلح نماذج لأدب أوربى أصيل ، فما دام  
الأدب يعكس نشاط مجتمعه ، ويعبر عن معتقداته ومشاعره  
فكيف تصلح الأعمال الأدبية لأمة من الأمم نماذج لأدب  
أمة أخرى تختلف عنها فى الصفات والأفكار كل  
الاختلاف ؟ . . وردنا على ذلك أننا لم نقصد بها قلنا  
ان مؤلفى الغرب وجدوا فى نماذج الأدب العربى منها  
يغترفون منه الموضوعات والمعانى . وانما قصدنا أنهم  
تعلموا منها فن التعبير الصادق عن الواقع . . . بيد أن  
هناك حقيقة أخرى قمينة بالتسجيل ، وهى أن الأوربيين  
كانوا أثناء اتصالهم بالعرب قبل ذاك عن طريق الأندلس  
وصقلية وفلسطين قد اقتبسوا بعض تقاليدهم العسكرية  
وتطبعوا بها راق لهم من طباعهم ، وتحلوا بشمائلهم  
وتشبعوا بكثير من قيمهم الحضارية ، ونفروا من خشونة  
الاغريق الوثنية ، وترتب على ذلك أنهم وجدوا فى الأدب  
العربى ما يعبر عن نفس هذه الطباع والشمائل والقيم  
الجديدة التى أخذت تتأصل فيهم . . . فكيف يقال ،  
والحال هذه ، ان الأدب العربى كان وقتذاك غريبا عنهم  
ولا يعكس طباعهم وأخلاقهم ؟ . .

وهناك سؤال يجدر طرحه والاجابة عليه : اذا كانت الثقافة العربية قد تزاجت بالثقافة الاغريقية الوافدة عليها ، فلماذا ظلت مضادة لها في اتجاهاتها حتى بعد ذلك التزاوج ؟ وقد يحسن أن نعيد السؤال على نحو أوضح : ما هي العوامل التي كانت تطبع كل ثقافة تفد الى جزيرة العرب بذلك الطابع الانساني الواقعي الصادق؟

قلنا ان النظام السياسى والوضع الاقتصادى فى بلاد الاغريق هما اللذان طبعا الحضارة المصرية بالطابع اليونانى عند انتقالها الى تلك البلاد . . . . فهل حدث مثل ذلك فى الجزيرة العربية ؟ هل كان وضع العرب الاقتصادى ، ونظامهم السياسى ؛ يطبعان كل ثقافة وافدة عليهم بطابعهما ؟ . . . . لاشك فى ذلك ، فهذه قاعدة طبيعية لا تختلف . . . . ان قلة الواحات وعيون الماء فى الجزيرة العربية الصحراوية جعلتها مسرحا لتقاتل القبائل فى سبيل الفوز بخير الموارد ، وأصبحت الحروب القبلية ديدن العرب . ومن هذه المحنة نشأت خير الصفات العربية التى صقلت طبيعة العرب الانسانية وهيأتها للصعود فى مدارج الحضارة . . . . وسيرد شرح ذلك فى حينه .



---

## بذور الحضارة

---

**ان** عقلية العرب التي صفت صفاء سمائهم ، وتألفت تألق نجومهم في سمائها الصافية . ان هذه العقلية الشاقبة المنقبة المتغلغلة الى الأغوار ، المتسربة الى الأطراف والحواشي ، هي التي طبعت ذهن علماء الغرب ، قبيل عهد احياء العلوم ، بطابعها الفذ ، وهي التي علمتهم كيف يدرسون العضلات ، ويحققون الشبهات ، ويحللون المشكلات ، وينقبون عن الأسباب الرئيسية للأمر ، ويستنبطون النتائج المترتبة عليها . ان هذه الميزة الذهنية . . . ميزة الدقة العلمية التي اكتسبها علماء أوروبا من العرب - كما قلنا سابقا - هي التي مكنتهم من تحقيق كشوفها العلمية . . . غير أنهم لم ينجحوا في ذلك الا في ظل حرية الفكر التي استافوا عبرها العبق من الجزيرة العربية أيضا . فها هم بها هياما ، واستبسلوا في النضال لانتزاعها من أيدي رجال الكنيسة المتعصبين

المستبددين ، وما فازوا بها حتى تهيأت التربة الصالحة لغرس بذور حضارتهم .

بيد أن مهمة العرب في المعاونة على بناء الحضارة الغربية لم تقف عند هذا الحد ، فهم لم يغرسوا في نفوس علماء الغرب حب حرية الفكر وتقديسها ولم يلقنوههم دقة البحث فحسب ، ولكنهم أمدوهم بعلم هو أساس الجانب المادى من الحضارة الغربية بحق . . . أمدوهم بعلم الرياضة ، أو بنظريات استحدثوها في علم الرياضة ففتح ذلك لأوربا طريق التقدم العلمى فسيحا ممتدا الى غير حد .

لا يكاد يجادل أحد فى أن الجانب المادى من الحضارة الحديثة يقوم أساسا على الرياضيات ؛ فهى ، أى الرياضيات كانت ولا تزال المفتاح الرئيسى حتى لمغاليق العلوم الطبيعية والجغرافية والهندسية وغيرها . بل لقد أخذ ديكارت يستعين بها لوضع فلسفة يفسر بها الوجود ، ثم اعتمد عليها برتراند راسل أخيرا لحل معضلاته الفلسفية وسبك معادلاته المنطقية . . فالى أى مدى أفاد العلماء الغرب من مبتدعات العرب الرياضية حتى استطاعوا بالدأب على الدرس والعمل المجهد الى اطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية ؟ . .

لقد ابتدع جابر بن حيان علم الجبر الذى سنسمي بأسمه . وابتدع الخوارزمى - وهو عربى الثقافة والعقلية رغم أصله الفارسى - ابتدع اللوغاريتم الذى سمي كذلك



باسمه ، اذ كان الأوروبيون يعرفون اللوغارتم باسم  
« الجورتمى » أى الخوارزمى .

ولن تشط بى الحماسة اذا جاريت من يزعمون  
أن العرب هم الذين ابتدعوا الحساب ، وجزمت بأنهم  
هم أول من كتبوا الأرقام السهلة الحديثة ، وأدلل على  
ذلك بأن الكتابة فى أوربا كالكتابة الاغريقية تتجه من  
الشمال الى اليمين ، وكان الطبيعى أن تتجه كتابة الأرقام  
المركبة هناك هذا الاتجاه أيضا ، ولكنها على العكس .  
تتجه من اليمين الى الشمال ككتابة الأرقام العربية سواء  
بسواء . . . ان التاريخ لم يذكر لنا قوما تبجروا فى علم  
الحساب قبل قدماء المصريين الذين لم يبتدعوا قواعد  
وحسب ، ولكنهم طبقوها أروع تطبيق ، وقد تلقى  
الاغريق هذا العلم عن أساتذتهم المصريين سواء عن طريق  
العرب أو الفينيقيين ، وتبحر فيه فيثاغورس وتلاميذه .  
وأضافوا اليه من القواعد الجديدة ما زاده قيمة وفاعلية  
ثم تلقاه العرب ثانية فحولوه الى قوة ديناميكية فعالة فى  
تطوير العلوم بعد أن ابتدعوا الجبر واللوغارتم . . .

يجمع مؤرخو الفلسفة الغربية على أن مؤلفات ديكارت  
هى التى حولت الفكر الأوروبى الى الاتجاه الحديث . ولسنا  
فى معرض تفضيل العناصر الجديدة الثورية التى  
اشتملت عليها أعمال هذا الفيلسوف ، ولكننا سنشير الى  
حجر الزاوية فى التحول الفلسفى الديكارتى . . . لقد  
تبحر هذا الفيلسوف فى العلوم الرياضية ، واهتم

الى فكرة بسيطة كانت لها أخطر النتائج ، لقد خطر له أن يطبق قواعد الجبر على علم الهندسة - لا سيما فرعيه النظرى والميكانيكى - وعلى مستعصيات علم الحساب ، وقد وصل بذلك الى كشف مغاليق تلك العلوم وتفسير أسرارها ، بل استطاع أن يفلسفها . . . ثم يفسر الوجود « فلسفيا » على ضوءها . . . ومن ثم أقام صرح فلسفته التى تفسر الوجود تفسيراً ميكانيكياً . وهكذا نرى أن الفلسفة الغربية مدينة بتطورها الحديث للعرب . .

يؤكد مؤرخو الغرب أن فلسفة ديكارت كانت نقطة انتقال الفكر الاوربى من عهد محاكاة الاغريق الى عهد الأصالة والانطلاق ، ولكن أحداً من أولئك المؤرخين لم يذكر لنا فضل العرب على ديكارت ، أو مدى افادته من علومهم التى نقرر نحن هنا انها هى التى فتقت ذهنه ومكنته من إقامة صرح فلسفته .

بيد أن أثر الفكر العربى ظهر فى أورباً حتى قبل ديكارت الذى عكس هذا الأثر بجلالة فى فلسفته . . ولستنا نشك فى أن كوبرنيكس وجاليليو قد أفسادا من بحوث العرب فى علم الفلك الذى تلقياه أيضاً من المصريين عن طريق الاغريق . . واذا كابر فى ذلك مكابر فانه لا يستطيع أن ينكر أن هذين العالمين اللذين غيرا معتقدات العالم عن الكون قد استعانوا بالجبر على حل ما اعترض دراساتها من تعقيدات رياضية . . . كذلك توصل « نيوتن » به وبألوغارتم الى كشف القوانين الطبيعية

التي لا نظن قارئاً يجهل ما كان لها من قيمة في تطوير العلوم الرياضية والطبيعية .

ومن أثر النتائج الباهرة التي أسفرت عنها تلك الكشوف العلمية المعتمدة على الرياضية ، أن آمن الأوروبيون بالعلم ، ثم آمنوا بالعقل البشرى الذي ابتدع العلم ، واستطاع به أن يطور الحياة بنفسه ، بدل الاتكال على الطبيعة في تطويرها ، وأن يقضى على خرافة القدريّة ، ويمكن الناس من الثقة الكاملة بأنفسهم ، تلك الثقة التي ما كان للحضارة الراهنة أن تتوقر الا بتوفرها وهذا ما حمل الفيلسوف الألماني « كانت » على القول بأن الرياضة هي العلم اليقيني الوحيد ، أما باقي العلوم فتفكر فيها العقول ، وتختلف في تقدير نتائجها .

ويستطيع المرء أن يستخلص مما تقدم أن فضّل العرب على الأوروبيين لم يفتصر على إمدادهم بمفاتيح علومه الحديثة فحسب ، ولكن تعدى ذلك إلى تنقية عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة ، وحملهم على الإيمان بالعلم ، والإيمان بقدرتهم على التحكم في مصائرهم .

ومن أهم ما حفز التقدم الأوروبي إلى الأمام ، كشف القارة الأمريكية . . . ثم كشف رأس الرجاء الصالح والوصول عن طريقه إلى جزر الهند الشرقية . ان هذه الكشوف لم تمد أوروبا بأسباب الازدهار المادي فحسب . ذلك الازدهار الذي رفع مستوى معيشتها ، وهياً لها أنسب الظروف للتقدم الفكري والأخلاقي والفني ، ولكنها



أشعلت الخيال ، وزادت من ثقته بالنفس . والایمان  
بالعلم . . . وهل ينكر أحد أنها لم تكن لتتاح لولا «البوصلة»  
وهي اختراع عربى ؛ ولولا أصول علم الملاحة التى تعلمها  
الأوربيون من العرب ، ولولا الملاحون العرب الذين أرشدوا  
« فاسكودى جاما » الى الطريق البحرى الموصل الى جزر  
الهند الشرقية ، بعد أن كان قد توقف حائرا فى رأس  
الرجاء الصالح لا يعرف فى أى اتجاه يسير ؟ . . . وهل من  
قبيل المصادفات أن يكون « خرستوف كولومبس » أصلا  
من أسبانيا ، « وفاسكودى جاما » من الجزيرة الأندلسية؟  
وأن تزدهر الملاحة فى أسبانيا الأندلسية حتى تصبح  
هذه الدولة أكبر دول الملاحة فى العالم .

ولا يخال أحد أنى أقصد مما تقدم أن أنكر اسهام  
الأوربيين فى اقامة صرح الحضارة الراهنة أو أن أزعـم  
أن هذا الصرح لم يكن ليتاح له أن يقام لولا العرب .  
بل لم يكن ليتاح اطلاق الأقمار الصناعية لولا جابر بن  
حيان والخوارزمى . . . لا ، ليس هذا هو قصدى . . .  
فلو ان العرب لم يحققوا ما حققوه لما عجز غيرهم عن  
تحقيقه على مر الحقب . ولكنى أقصد أن أقرر حقيقة ينكرها  
الغرب اليوم . . . أقصد أن أنوه بالقسط الذى أسهم به  
العرب فى اقامة أساس الحضارة الراهنة . . . ان العقل  
البشرى قمين أن يبتدع علمى الجبر واللوغارتم فى أى  
زمان تتوفر فيه الظروف المعينة على ابتداعهما . . . ولو لم  
يهتد اليهما العالمان العربيان لاهتدى اليهما غيرهما . وكل

ما لهدين العالمين من فضل هو سبق غيرهما الى كشف  
ما كشفاه . . . أما فضل الذين استخلصوا النتائج الكبرى  
من كشف العرب العلمية ، فمن الشطط أن ينكره منكر  
وأقصد كذلك من هذا التنويه بفضل العرب أن  
أرد لشعوب الشرق - دون زهو وغرور - ثقتهم بأنفسهم ،  
وأن أحفزهم للعود من جديد الى الاسهام فى بناء  
الحضارة العالمية بعزم وكفاءة جديرين بالسلف . وأن  
أظهر للرجل الأبيض المستعمر الذى يريد أن يحتكر فضل  
تشبيد الحضارة الحديثة أن أسلافه تلقوا أهم أصول  
العلم والتهذيب الراهنين من الأقوام الذين يحتقرهم  
اليوم .

ان الدور الذى لعبه العرب فى تاريخ الحضارة هو  
أهم وضعوا أوربا التى كانت تعيش على فتات علوم  
الاغريق . . . فى أول طريق التقدم الحضارى الحديث ،  
وزودوها بأدوات النجاح فى الوصول الى الغايات الحضارية  
. . . أما هى فكان لها فضل التوفيق فى تحقيق تلك  
الغايات .

واذا وجد بعض المتشيعين للفكر الأوربى شبهة  
التعصب فيما قلت ، فما رأيهم فى علماء أوربيين ذهبوا  
فى الاشادة بفضل العرب على الحضارة الى أبعد مما ذهبت  
اليه . اذ لم يكتفوا بذكر الدور الخطير الذى لعبه العرب  
فى اقامة الصرح لم يكن ليقام لولا اسهام العرب فى  
تشبيده - ومن أمثلة ذلك ما قرره الأديب المؤرخ الفرنسى

« روبر بريفو » فى كتابه « الشعراء التروبادور » صفحة ٢٠ : « كانت أوربا فى القرن الحادى عشر ، والقبرن الثانى عشر ، تتجه الى العرب باحثه عما استجد عندهم من صناعات وعلوم . . . ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب فى تطورها وتبدل حالها . . . ثانت أوربا تتجه اليهم منقبة عن كشوفهم فى علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار « أزمطو » وابن سينا ، وابن رشد . وكان علماؤنا من أمثال « دانيال دى موري » و « ميشيل سكوتوس » و « دى جريمون » و « دوريلاك » و « وريمون لول » يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد « ريجيومو نثانوس » عندهم المعارف التى مكنت « هنرى الملاح » و « فاسكودى جاما » و « خرسنوف كولومبوس » من ارتياد المحيطات ، والوصول الى أطراف العالم . وعثر « أديلهارد دى باث » فى قرطبة على النسخة الوحيدة فى العالم من مخطوط « أوسليد » الذى ظل يلحق للطلبة فى مدارس أوربا حتى عام ١٥٣٣ . وطاف كل من « أفلاطون لوييزون » و « فيبروناتشى » فى أرجاء أسبانيا ، ليتزودا من علوم الرياضة لا سيما الجبر والتقويم واللوغارتم . بل ان الكنيسة نفسها التجأت الى العرب لتجد عندهم ما يعينها على اقامة صرح الفكر المدرسى . . . وبحث كل من « ألبير الأكبر » و « توماس ألين » عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها فى بلنسية ، وعند الفارابى . . . وفى الوقت الذى



أنشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا  
العربية صرح « روجر بيكون » فى أوكسفورد بأن وجود  
الفكر الأوربى ، والعلم الأوربى ، كان مستحيلا لولا وجود  
المعارف العربية .

لقد دعيت أوربا فجأة الى الحياة بعد أن ظلت غارقة  
فى ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهى مدينة بكل  
مقوماتها الى العالم الاسلامى . . . .

وتملك هذا الكاتب الضيق بتعصب قومه فصاح  
قائلا فى الصفحة نفسها من الكتاب عينه : « ألا يجدر  
بنا أن نكون أكثر وعيا واستنارة فنتخذ موقفا جديدا من  
العرب غير موقفنا الذى دفعتنا اليه الافكار التى ظل  
الأكاديميون يرددونها وقتا طويلا وهى ليست فى الواقع  
الا وليدة التباسات قديمة ، وأوهام تاريخية أغمض  
أصحابها أعينهم عن الاسلام ، رافضين أن يقفوا على حقيقة  
علومه ومعارفه ، مستنكفين أن يعترفوا بفضله على  
المسيحية التى اتخذت الصبغة البربرية فى أوربا » .

وجاء فى كتاب « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » للمؤرخ  
دوزى ( ص ٣١ من المجلد الثالث ) « لم يكن أمراء أسبانيا  
قبل استعادة بلادهم من العرب ، أقل همجية ووحشية  
من سادة البرانس المسيحيين . . . بل لم يكونوا يعرفون  
الكتابة والقراءة ، أو التعامل بالنقد . وكان من يريد  
منهم أن يجمع بعض الأرقام أو يطرحها ، أو أن يقيس حدود

أرضه من الأراضى . . . لا يجد بداً من الاستعانة بعربى  
كى يحقق له ذلك » .

هكذا كان حال سراة القوم فى اسبانيا قبل اتصالهم  
بالعرب ومن المعلوم أن هؤلاء الاسبان كانوا أقل خشونة  
ووحشية من أمراء شمال أوربا ، وأسرة قومها . ولم تتغير  
حال هؤلاء وهؤلاء الا بعد زحف الحضارة العربية الى  
بلادهم . ونحن لن نواصل الاستشهاد بأقوال الغربيين على  
صحة هذا القول ، ولكننا سندع الوقائع تتحدث عن  
نفسها فى الفصول التالية من هذا الكتاب .

## صفات العرب الحضارية

لا ينفرد المتعصبون من مؤرخي الغرب بقولهم ان الحضارة الغربية وليدة الحضارة الاغريقية فحسب ، وان فجر عهد احياء العلوم بزغ على أثر نشر التراث الاغريقي العلمى والأدبى فى أرجاء دول الغرب .. نعم ، لا ينفرد أولئك المعتصبون بترويج هذه الأكذوبة ، ولكن بعض كتابنا نحن العرب ينافسهم فى ترويجها بغير وعى ، وغير معرفة ، ويدونها حتى فى كتب المدارس دون أن يشير بكلمة الى فضل العرب ، وفضل قدماء المصريين على الحضارة الأوربية الحديثة . بيد أننا نكرر القول : بأن الغرب لم يحتذ الثقافة العربية احتذاء ، ولم يبن حضارته عليها وحدها دون أن يضيف اليها جديدا ، ولم يقصر فى تطويرها والوصول بها الى المستوى الشاهق الذى بلغته ، ولكن الذى لا يجوز أن تغفل عنه ، ولا تعوزنا اقامة الأدلة على صحته ، هو أن حضارة الغرب



لم تستمد عناصر وجودها وازدهارها من حضارة الاغريق  
فحسب ، ولكن من حضارة العرب أيضا وكانت هذه  
الحضارة الأخيرة هي التي دفعتها الدفعة القوية الى الأمام  
وهي التي حررت الأمم الغربية من رواسب الوثنية الاغريقية  
وأبدلت بمعتقدات العصر القديم ومثله وأفكاره وتقاليده  
معتقدات وأفكارا ومثلا وتقاليد جديدة أمدت دوح الحضارة  
الغربية بأهم أسباب ايتاعها واثمارها ، وفتحت لها طريقا  
جديدا للتقدم ، وأوصلتها بذلك الى نقطة الانطلاق الى  
الآفاق الجديدة .

وباستثناء من أشرنا اليهم فيما سبق من علماء الغرب  
الشرفاء الذين يضطلعون اليوم في أمانة وإخلاص بالتنقيب  
عما كان للعرب من تأثير في تطور الحضارة الغربية ، فإننا  
نجد زملاء لهم يطرقون نفس الموضوع ولكن كراهيتهم  
للعرب تحملهم على القول : بأن فضل هؤلاء على الحضارة  
الغربية ينحصر في المحافظة على بعض تراث الاغريق الفكري  
ونقله الى أوروبا . . . بيد أن واحدا من أولئك المفكرين  
توسط الطريق ، وهو المؤرخ الانجليزى « توينبى » ،  
وقرر أن الدور الذى لعبه العرب في هذا الصدد كان  
ايجابيا لا سلبيا . فهم لم ينقلوا الفكر الاغريقى الى أوروبا  
دون أن يمسوه ، ولكنهم شرحوه شرحا جلا غوامضه ،  
وعلقوا عليه تعليقا أقال عشراته وأكمل نواحي النقص  
والتقصير فيه .

ولكن الذى أغفله توينبى وغيره من زملائه المؤمنين

يتفرد الرجل الأبيض الغربى ، هو أن فضل العرب على ذلك الرجل المتغطرس لا يقتصر على نقل التراث الاغريقى الى أوروبا مشروحا أو غير مشروح ، ولكن يتعدى ذلك الى الجوهر الذى أقر به المنصفون من الغربيين ، وهو أن أوروبا مدينة بحضارتها للعرب . . . والفيصل بين الحق والباطل فى هذا الموضوع هو مناقشته واقعا . فمثل هذه المناقشة هى الكفيلة باحقاق الحق وازهاق الباطل .

ان أهم ما يلفت نظر الباحث فى تاريخ أوروبا خلال العصر الوسيط هو عجز المسيحية عن تحرير الفكر الأوربى من ربة الفكر الاغريقى فى بحر الشطر الأكبر من ذلك العصر . . . فبرغم اعتناق الأوربيين للمسيحية ، وإيمانهم بمثلها الفكرية والأخلاقية ، فقد ظلت الفلسفة الاغريقية مسيطرة على اتجاهاتهم الفكرية ، واحتفظت باستقلالها عن دينهم . . . ألم يكن رجال الكنيسة يستعينون حينذاك بأفلاطون وأرسطو فى تفسير أمور الدنيا ، ويضعون فلسفتها ، كما يضعون معتقدات الدين المسيحى ، فوق كل مناقشة ؟ - ان هذه الخطة لم تعجز المسيحية عن أداء رسالتها فحسب ، لكنها سخرتها فى طمس الفكر الأوربى الناشئ ، أو تعطيل تطوره .

لقد عطل رجال الدين ملكة التفكير عند الأوربيين ، وكبلوا عقولهم بالنصوص الفلسفية وعقائد الدين ، وحظروا عليهم البحث عن أى حل لآية مشكلة الا من بين ثنايا تلك النصوص والمعتقدات . وقد يظن القس

الفيلسوف سانت أوجوستان ( ٣٥٣ - ٤٣٠ م ) الى عمق  
التناقض القائم بين المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، فبدلاً  
من أن يناقش هذا التناقض ، وينقب عن الحقيقة ، جنح  
الى المهادنة ، وحاول أن يعالج ذلك التناقض فى كتابه  
« مدينة الله » بالتوفيق بين تلك المذاهب المتناقضة . . .  
لقد حاول فى ذلك الكتاب ؛ وفى كتاب آخر له دعاه  
« الاعترافات » أن يوفق بين الأفلاطونية والعقيدة المسيحية  
. . وكذلك بين العقل والايمان .

ولكن شأن العرب فى هذا كان غير شأن الأوربيين  
فقد درس مفكرهم - كما قلنا - فلسفة أفلاطون وأرسطو  
وغيرهما من فلاسفة الاغريق ، وامتحنوا المشكلات العقلية  
التي أثاروها ، والأسئلة الحائرة التي طرحوها دون أن  
يوفقوا الى اجابة عليها تشفى الغليل ، ثم نظروا الى دينهم  
أى الى الدين الاسلامى ، وامتحنوا موقفه من تلك المشكلات  
ونظرتة اليها ، ووسيلته الى حلها ، وراحوا يناقشون ذلك  
كله مناقشة جريئة حرة، تعرضت فى بعض الاحيان  
لموضوعات دقيقة كان طرقها محظورا . . فقد تساءلوا  
مثلاً عن أزلية الصفات الالهية وأزلية القرآن ، وحرية ارادة  
الانسان وما يترتب على التسليم بهذه الحرية من تناقض  
مع بعض الأصول الدينية . . ولن أطيل فى هذا . انما  
يكفى أن أقرر هنا أن العرب هم أول من ناقشوا المسائل  
الدينية مناقشة حرة ، وقد عرفت بحوثهم فى هذا الشأن  
باسم « علم الكلام » وعرف أئمة هذا العلم باسم « المتكلمين »



— وما انتقلت مؤلفات أفلاطون وأرسطو من أيدي العرب الى الأوربيين مشفوعة بتعليقات « المتكلمين » حتى أحدثت تلك التعليقات أثرها في عقول مفكرى أوربا الذين كانوا قد أخذوا يفيقون من سباتهم ويضيقون بالأغلال التي كبل بها رجال الدين فكرهم . . ولم يلبثوا أن تشجعوا وراحوا يحنون حذو « المتكلمين » في مناقشة مسائل الدين ، وتدريج المصنفات في ذلك :

وقد يسأل سائل : وما أثر ذلك في نشأة الحضارة الغربية وازدهارها ؟ . . ليست عصور الظلام الا العصور التي تفرض فيها معتقدات معينة على الفكر ، وتحظر عليه مناقشتها ، فالفكر في هذه الحالة يتعطل ، ثم يأسن ويتعفن . أما أهم ما يميز عصور الازدهار فهو حرية الفكر . . حرية مناقشة جميع المشكلات التي تهم الانسان وتشغل باله ، فمن احتكاك المناقشة الحرة ينبثق النور الذي يجلو الحقائق ، أو يجلو جانبا منها . . أو يشهد الفكر ، على أقل تقدير ، وينميه . . وبذلك تتحرك عجلة التطور الحضارى ، ثم تسرع في خطاها .

وبانتشار مصنفات « المتكلمين » في غرب أوربا اشتعلت شرارة الثورة الفكرية على رجال الدين استبدوا بالفكر الأوربى ، وشلبوا حركته ردحا من الزمن : وقد استفحلت تلك الثورة ، وحطمت معازل استغلال الفكر ، وما زالت تواصل انتصارها حتى استطاعت أن تحقق مبدأ فصل العلم عن الدين . . هذا المبدأ الذى مكن العلم

الأوربي من تبوؤ المكانة التي وصل إليها اليوم . ومن  
الاسهام بأوفى نصيب في بناء الحضارة الراهنة . ومما  
مكن علماء الغرب وحكماءه وأدباءه من الارتفاع بالعلوم  
والبحوث الفكرية والأدبية الى المستوى الحضارى الذى  
وصلت اليه ، ما تميزت به مؤلفاتهم من تدقيق فى التحقيق  
العلمي ، ومن تطرق التحليل الى الأغوار والأطراف .  
وكل من يطلع على تحقیقات المتكلمين العرب الفلسفية ،  
وعلى بحوث العرب العلمية يجد فيها المصدر الذى نبعت  
منه تلك الدقة الأوربية العلمية التى لم تظهر الا بعد  
انتقال المؤلفات العربية الى أوربا . . . واذا جادل المجادلون  
فى هذا - فما قولهم فى التاريخ العربى ؟ . . . كان مؤرخو  
الإغريق يدونون فى مؤلفاتهم كل ما يصل الى آذانهم  
من حكايات وروايات دون أن يستوثقوا من صحة مصادرها  
ولكن مؤرخى العرب جاءوا بعد ذلك فتحروا الدقة العلمية  
فى تحقيق الوقائع التاريخية التى يمتحنونها ، واستخلاص  
صحتها من زائفها ، فعلموا مؤرخى أوربا الذين كانوا  
متأثرين بمؤرخى الإغريق أهمية الصدق التاريخى ، وكيف  
يكون البحث فى سبيل استخلاصه . . . واذا كان بعض  
النقاد يأخذ على الأدب العربى قصوره فى تحليل الخوارج  
البشرية ، والمشكلات الأدبية ، وفى التغلغل الى تفصيلاتها  
- فمرجع ذلك الى فهم العرب الخاطيء للبلاغة ، اذ ظنوا  
أنها لا تتحقق الا بإيجاز ، أو بتطبيق قاعدة « ما قل ودل »

بيد أن أدب الغرب لم يتأثر بهذه القاعدة فاستطاع أن يفيد  
من افاضة العرب في بحوثهم الفكرية . . .

يتضح مما قدمناه بإيجاز أن العرب تميزوا بصفات  
صبغت مؤلفاتهم العلمية والادبية بصبغتها ، وسمت بها  
الى مستوى أسلمى من مستوى سابقاتها ؛ بل نقلتها الى  
عتبات مرحلة جديدة مهدت لبزوغ الحضارة الاوربية ،  
لقد شقت هذه المؤلفات طريق البحث العلمى الحر الذى  
كان له الفضل الكبير فى قيادة اوربا الى آفاق حضارتها  
الحديثة . . هذه الصفات هى التحرر من الخرافات والاهام  
والنظر الى الأمور نظرة واقعية ، ومحاولة فهمها على  
حقيقتها بتمحيصها وتقليبها على جميع وجوها ، والبحث  
عن مصادرها . ومن أهم تلك الصفات هى التى تلقنها  
علماء الغرب وأدباؤه عن العرب ، وتأثروا بها فإطرحوا  
خرافاتهم القديمة ، واتبعوا فى تأليفهم العلمى ما اتبعه  
العرب من استقراء وتمحيص واستدلال واستنباط . . .  
وفى تأليفهم الادبى من وصف صادق للواقع ، وتنقيب عن  
دقائقه ، وتحليل دقيق لنقائضه .



ويرغم أن العرب فى الجاهلية ، وفى مطلع الاسلام ؛  
كانوا لا يزالون يعيشون فى ظل النظام القبلى ، فقد تحلوا  
حينذاك بصفات مدنية لم يتحل بمثلها أقوام تخطوا المرحلة



القبلية . . كانوا يتحلون بالنخوة والدمائة واللفظ ورقة  
الحاشية والايثار والمروءة والنجدة والعفو عند المقدرة ، الى  
آخر تلك الصفات التي يحاول الرجل المتحضر اليوم أن  
يتصف بها ، ويحسب أنها ثمرة الحضارة الأوربية  
الحديثة ، وآية من آياتها .

ومن صفات العرب القدامى أيضا عشق الجمال في  
المرأة ، وفي غيرها من ظواهر الحياة ، بل تقديس الجمال  
وتنزيهه ، وقد ترتب على ذلك أن أعز العربى المرأة  
وكرمها وأعلى قدرها فمكنها من أن تشعر بكرامتها ؛  
وتستمتع بحريتها ؛ وتغترف من الثقافة لتزداد قدرا ،  
وتلعب دورها الحاسم فى بناء صرح الحضارة .

ولعشق الجمال هذا فضل أكبر فى تخليص العربى  
من فظاظة الهمجية ، ولوثة الجاهلية ، وفى حفزه الى انتاج  
الآيات الجمالية فى أدبه ، وفيما يحيط به نفسه من مظاهر  
المدنية والعمران .

ولا يتسع المجال فى هذا الكتيب للاستشهاد  
بالنصوص على صحة ما ذكرنا . . ومن يود التحقق بنفسه  
من تلك الصحة عليه أن يقرأ شعر العرب وأنباءهم  
وحكاياتهم وقصصهم . . .

وقد نقلنا فى آخر الفصل السابق وصف دوزى  
لهمجية أمراء أسبانيا والبرانس قبل اتصالهم بالعرب . .

ونحن نتم الآن قول دوزى فى هذا الصدد ( المرجع نفسه )  
« لم يكد أمراء أسبانيا يسترجعون بلادهم من العرب حتى  
أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الأبهة والفخامة العربية ،  
وأصبح بلاط قشطالة مجتمعاً للشعراء كسوق عكاظ » .

هذه هي الصفات التي سمت بالعرب ، قبل غيرهم ؛  
ونقلتهم من المرحلة شبه الهمجية ، أو المرحلة غير المهدبة  
الى مرحلة التهذب الحضاي ، وسنتكفل فى فصل تال  
ببحث العوامل التي غرست فى العرب تلك الصفات قبل  
غيرهم من الأمم .

---

## المرأة العربية والحضارة

---

**تنظر** المرأة الأوروبية اليوم الى المرأة العربية نظرة  
ازدراء فهي تتصورها أمة تعيش حبيسة بين  
جدران البيوت مع زميلاتهن الحريم لتبهج الرجل ، وتحظيه  
وتقوم على خدمته . ( « بيردييه » في كتابه « القصة  
عبر سبعة قرون » ) .

وقد فضلت المرأة الأوروبية التي تنحال أنها بلغت ذروة  
التحضر ، وانفردت به . . غفلت عن حقيقة لو فطنت اليها  
لنهنهت من كبريائها ، فهي لم تبتدع مقومات تحضرها ،  
ولكنها ورثتها عن المرأة العربية .

ولست أحسب أن قارئنا عربيا يجهل اليوم ما كان  
للمرأة العربية ، منذ الجاهلية ، من مكانة مرموقة بين  
قومها ، مستمدة مما كانت تتحلى به من رجاحة عقل ،



وسعة علم ، ومتانة خلق ، ولكننا سنلمع مع ذلك الى شئ  
مما قاله بعض مؤرخي الغرب عنها ، لعل ذلك يقنع  
المنكرين . . .

ورد في كتاب « المعلقة السبع الذهبية » صفحة ١٤  
للأخوين « أن وويلفرد بلنت » ما يلي : « كانت خيام  
العرب ، حتى في الجاهلية ، تضم سيدات أدبيات مثقفات  
ينظمن الشعر ، ويجلسن في مقعد التحكيم بين فحول  
الشعراء » .

وجاء في كتاب « الشعراء التروبادور » للمؤرخ المنصف  
« روبير بريفو » ما يأتي :

« ليس هناك خطأ أفضح من الظن بأن العرب لم  
يعرفوا من الحب الا لونه الجنسي الشهواني . . ومما  
يؤسف له أن هذا الخطأ شائع بيننا . . ان الحب المثالي  
المبنى على تقديس المرأة من أهم تقاليد العرب الموروثة عن  
الجدود الاقدمين ؛ بل ان التعلق الحماسي بالقبيلة غرس  
في نفس العربي تقاليد الفروسية التي سمت به عن الدنيا  
وبثت فيه الاخلاص للمرأة ، وحملته على احترامها ، وقد  
انعكست هذه المشاعر في الشعر العربي التقليدي . . »

وتطور الحب العذري حتى تمخض عن « العشيق  
الالهى » . ومن ثم نشأت الصوفية التي نزهت المشاعر  
الانسانية عن كل ابتذال ، ورأت في الحب منبعاً للايمان

والخير والنبل ، بل منبعاً للفضائل والمعارف أجمع . وقد قال « جيبون » فى هذا الصدد : ان الصوفيه لا ترى العشق غاية فى ذاته ، ولكنها تراه الوسيلة المؤدية الى المعرفة . . . »

ولن نتوسع فى شرح ما تقدم ؛ فان ما ذكرناه يكفى للدلالة على ما نرمى اليه . فالمستوى السامى الذى ارتفعت اليه مشاعر العرب العفيفة الطاهرة يعيننا على تصور التقدير الذى حظيت به المرأة العربية . ويفسر ما احيطت به من تكريم وتبجيل أعانها على احترام نفسها ، والاستزادة من أسباب تقدير الناس لها ، كما يدحض رأى الاوربي العام فيها .

فمن العرب تعلم الاوربي كيف يعز المرأة ، ويستوحى من جمالها أسمى التصورات ، ويستسلم لأنبل المشاعر ، بعد أن كان لا يعرف من ألوان الحب الا ذلك اللون الجسدى الذى ورثه عن الهمجية الاولى ، وتلقن فنونه عن الاغريق ولو أملت المرأة الأوربية بالحقيقة لأدركت أنها مدينة بالحرية التى نعمت بها ، والمكانة التى سمت اليها للمرأة العربية ، بل لعلمت أنها مدينة لها بأكثر مما تقدم ، فالمرأة العربية لم توفر لها ما ذكرناه فحسب ولكنها أمدتها كذلك بفنون الأناقة والرشاقة والدمائة التى جعلت منها امرأة متحضرة بحق . وفيما يلى طرف من أفضال المرأة العربية عليها .

كانت المرأة في الجزيرة العربية ترفل في الدمقس  
والحرير ، على حين كانت الأوروبية ترتدى الملابس الكتانية  
الخشنة . . . قال الشاعر الجاهلي «المنخل اليشكري» :

الكعاب الحسناء تر

فل في الدمقس وفي الحرير . . .

وقال عمر بن أبي ربيعة بعد ذلك :

وقامت اليها حرتان عليهما

كساآن من خز دمس وأخضر

وكانت المرأة العربية تتجمل بالأردية الشفافة :

وليس عباءة وتقرعيني

أحب الى من لبس « الشفوف »

وكانت المرأة العربية تتحایل لتزداد جمالا ، كانت

تتألق في مشيتها كما تفعل المرأة الأوروبية اليوم لتنال

الحسن بالحيلة ، بعد أن كانت خشنة الحركة ، غشة

الایماء ، شوهاء الخطوة . . . قال المنخل اليشكري يصف

مشية المرأة في الجاهلية :

ودفعتهما فتدافعت

مشى القطاة الى الغدير



وقال المتنبي بعد ذلك :

تشبه الخفريات الآنسات بها

فى مشيها، فينلن الحسن بالحيل

وقال آخر :

هيفاء ميساء مصقول عراقبها

تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوجل

واللغة العربية تنفرد بين لغات العالم بإطلاق أسماء مختلفة على المشى الرشيىق الأنيق ، فأنت لا تجد غير كلمة واحدة تعبر بها كل لغة عن حركة المشى ، سواء أكانت التى تمشى امرأة أم رجلا ، أما العربى فيصف المرأة حين تمشى بقوله : « تشنى » و « تتأود » و « تبخترو » و « ترفل » وغير ذلك من الكلمات التى تصور تأنىق العربية فى مشيتها وتنطق بما كان لذلك من أهمية انعكست فى اللغة نفسها .

كانت المرأة العربية تتجمل بأصباغ الوجه ، وتبذل جهدها لتضفى على نطقها عذوبة وطلاوة .. قال المتنبى منكرا التحضر ، ومؤثرا عليه البداوة ، بيد أن انكاره يثبت وجود ما ينكره :

نفسى فداء ظباء ما عرفن بها

مضع الكلام ولا صبغ الحواجيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية  
وفى البداوة حسن غير مجلوب  
وكانت تجيد التحدث .. قال كثير :  
مخضبة الأطراف ود جليسهها  
اذا ما انقضت أحداثه لو تعيدها  
وقال آخر :

رهبان مدين والذين أراهمو  
يبكون من خوف العذاب هجودا  
لو يسمعون كما سمعت حديثها  
خروا لعزة ركعا وسجودا  
ولها ذوق رفيع فى التزين .. قال كثير أيضا :  
محصرة الأوساط زانت عقودها  
بأحسن مما زينتها عقودها  
وهى لم تكن مجرد سلعة يفوز بها الرجل القوى ،  
أو الزوج الموسر ، ولكنها كانت تلعب بقلوب الرجال  
يمنيننا حتى ترف قلوبنا  
رفيف الخزامى بات طل وجودها

كانت تصمى قلوب الرجال بنظراتها الساحرة ..  
قال الشاعر :

رمتني بلحظ لو كميا رمت به  
لبل نجيعا نحسه ونبائقه

وكان العربي يتهدج لنظرات العيون العربية الساحرة  
ويقدرها حق قدرها :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها  
الى .. وكلا ليس منك قليل  
وقال عمر بن أبي ربيعة :

وترنو بعينيها الى كما رنا  
الى ربوب وسط الخيمة جؤذر

ونظرة الغادة العربية تسيل الدموع لفرط عذوبتها  
ومما شجاني أنها يوم أعرضت

تولت وماء العين في الجفن حائر

فلما أعادت من بعيد بنظرة  
الى التفات أسلمته المحاجر

والعربية الحسناء تأسر القلوب بأشارتها اللطيفة ،  
وايماءاتها الرقيقة :



وماذا عليها لو أشارت فسلمت  
علينا بأطراف البنان وأومت  
والشاعر يتحسر حين تبخل عليه بمثل تلك الإشارة:  
منعت تحيتها فقلت لصاحبي  
ما كان أكثرها لنا وأقلها  
والفتاة العربية الأتيقة تعنى حتى بتصفيف شعرها:  
وكسر الشعر واوات ورجله ...

وكانت المرأة الأوربية تحجم عن الاستحمام ، متخذة  
من قذارة الجسد دليلا على طهارة النفس والزهد في  
الرجال ، على حين كانت المرأة العربية تصون جمالها عن أن  
تلوثه القذارة ، وتعلم حق العلم إلا علاقة بين العفة  
والاتساخ ... كانت تحرص على الإبراد كلما أتيح لها  
ذلك . قال المتنبي :

... ولا خرجن من الحمام مائلة  
أوراكن صقيلات العراقيب

وقال آخر :

ولقد قالت لجارات لها  
وتعرت ذات يوم تبترد

أَكْمَا يَنْعَتْنِي تَبْصِرْنَنِي

عَمَّرَكُنْ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ ؟

وامتازت المرأة العربية بدقة خصرها ، وامتلاء صدرها  
وعجزها وأفاض الشعراء العرب في وصف ذلك . ومما قيل  
في ذلك :

أَبَتْ الرَوَادِفُ وَالشَّدَى لَقَمَصْهَا

مَسَّ الْبَطُونُ وَإِنْ تَمَسَّ ظَهْرُهَا

وَإِذَا الرِّيحُ مَعَ الْعَشَى تَنَاوَحَتْ

نَبَهْنَ حَاسِدَةً وَهَجَّجْنَ غَيُورًا

وقيل أيضا :

بَيَضَاءُ بَاكِرِهَا النِّعِيمُ فَصَاغَهَا

بَلْبَاقَةً فَأَدَقَهَا وَأَجْلَهَا

وَمَنْ ذَلِكَ الْبَيْتُ الْمَشْهُورُ :

هَيْفَاءُ مَقْبِلَةٍ عَجِزَاءُ مَدْبِرَةٍ

مَا عَابَهَا قَصْرُ يَوْمٍ وَلَا طَوْلُ

وقد قرأني صيت قوام المرأة العربية اللدن المتأود  
إلى المرأة الأوربية فبذلت جهدا للتشبه به ، ولبست

لذلك المشد الذي يضبط خصرها ، ويبرز صدرها ،  
ووضعت تحت زنارها قفصا عريضا من السلك لينفش  
رداءها الأسفل ( لم تقلع عن لبس هذا القفص الا في  
أواخر القرن الثامن عشر ) .

وحاكت المرأة العربية حتى في لبس الخمار أو  
النقاب . فالأوربية الأنيقة لا تزال تضع الى اليوم نقابا  
شفافا ينسدل من قبعتها الى ما يحاذي طرف أنفها . . .

ولم يبق علينا الآن الا أن نعرف : أتم توافق هذه  
القيم الحضارية بين المرأتين العربية والأوربية مصادفة ؟  
أم عن طريق توافق الخواطر ؟ أم تم محاكاة متعمدة ؟ . . .

ان الدولة الاسبانية التي قامت في بلاد الأندلس  
بعد انحسار العرب عنها ورثت الحضارة العربية - أو  
بعبارة أدق ، ورثت الحضارة الأندلسية المتولدة من  
امتزاج الحضارتين العربية والاسبانية الرومانية القديمة . .  
بيد أن الجدير بالتنويه هو أن الطابع العربى كان الغالب  
على هذا المزيج الحضارى .

صعدت هذه الدولة الاسبانية حثيثا في سلم التقدم  
بعد كشفوفاتها الجغرافية ، وامتلات خزائنها بالذهب  
الإمريكى ، وتضخمت قوتها العسكرية ، واشتد سلطانها ،  
فجذبت بذلك أنظار الدول الأوربية الغربية ، وبهرتها  
بمقومات حضارتها ، فحاول سادة هذه الدول - وكانوا



وقتذاك متعطشين الى المزيد من أسباب الأبهة والجاه - ان يحيطوا أنفسهم بمثل مظاهر عزها وترفها ، ويقتبسوا أساليب حياتها الحضارية ، ولما أعوزهم المال رأوا أن يغترفوه من المورد الذي تغترفه منه ، فتبعوا خطاها في البحث عن مستكشفات جغرافية جديدة ، واحتاج ذلك الى توسع في الانتاج الصناعى لبناء سفن الكشف والفتح والغزو ، ولتجيش الجيوش وتزويدهم بالملبس والعتاد . فتمت بذلك طبقة التجار ، ورؤساء الحرف الصناعية ، وكثر بالتبعية عدد الأطباء والمحامين والمهندسين والمشتغلين بالفنون والآداب ، وتهيأت بوجود تلك الطبقة النامية - ظروف ملائمة لزيادة ازدهار الثقافة الانسانية الجديدة الوافدة من اسبانيا .

كان ملوك أوروبا وأمراؤها يسكنون القلاع الغليظة الجدران ؛ المكفهرة المحيطان ويحيطونها بخنادق عميقة كثيرا ما كانوا يطلقون الماء فى قاعها ، ليعوقوا هجوم الأعداء فيتعطن ذلك الماء الآسن ، ويزكم عطنه الأنوف . ولم يعرفوا من أنواع الرياش الا أن يكسوا غرف قلاعهم وردحاتها بمختلف أنواع الدروع والسيوف والرماح ، والا أن يقيموا فى أركانها أردية الزرد . وفى هذه الأثناء كان أمراء العرب فى الأندلس يسكنون قصورا تنطق بسموهم الحضارى . . . أقاموها على غرار قصور بغداد فى عهد العباسيين ، وقصور القاهرة فى عهد الطولونيين ، وكانوا يزيتون حيطانها من الخارج بالنقوش الملونة البديعة .

ويكسونها من الداخل بأئمن الطنافس المحلاة بالأشكال  
المزخرفة الرائعة ، ويملئون غرفها وردحاتها بأفخر الرياش ،  
وينشئون لها - بدل الخنادق - حدائق غناء حالية بتمثيل  
أسود وفهود تصب أفواهاها الماء في أحواض أرضها  
وجدرانها من الفسيفساء . . . وقد حركت قصور العرب  
هذه في الشرق والغرب خوالج شعرائهم فوصفوها في  
شعر دل على أن نشاط الأدب العربي لم يتخلف عن غيره  
من أوجه النشاط الحضارى العربى . وهذا الشعر المعروف  
يغنينا عن الاسهاب في وصف تلك القصور وغيرها من الآثار  
العمراية العربية .

سكن ملوك أسبانيا وأمراؤها قصور الأندلس العربية  
بعد أن خلت من أهلها ؛ ولم يلبثوا أن بنوا قصورا جديدة  
على غرارها . ثم حاكاهم ملوك فرنسا وأمراؤها في ذلك  
فسكنوا القصور بعد القلاع والحصون . وسرت العدوى  
الى انجلترا وألمانيا وإيطاليا وغيرها فتبارى أمراء تلك  
البلاد في بناء أجمل المنازل ، وإنشاء أبهى الحدائق ،  
وما زالوا يدخلون على فن البناء من المبتدعات المعمارية  
والزخرفية ما مكنهم في النهاية من تشييد قصور التويلرى  
وبوكنجهام والكريملى وغيرها من تلك الدور التى تعد  
تحفة فنية تنطق بما وصلت اليه الحضارة الأوربية في  
هذا المضمار .

وانتفش العمران ، واتسعت المدن بفضل الاتساع  
الصناعى والتجارى اللذين ذكرنا بعض أسبابهما ، وأخذ

الاهتمام بتحسين السكن يسرى بنسب متفاوتة ، من طبقة  
الأمراء والأشراف الى الطبقة الجديدة التي كانت نزداد  
ثراء وعزة ، والتي قدر لها أن تصبح الطبقة البورجوازية  
الوارثة لأمراء الاقطاع .

وتحقق تقدم مطرد سريع في هذه الناحية الحضارية  
الهامة ، وهي ناحية العمران . وسار الى جانب هذا  
التحسن في فن البناء تحسين يقابله في تأثيث المساكن ،  
وارتفع مستوى الذوق الذي عاد وأثر في تحسين الأبنية  
وتحميل أثاثها ، واستمر هذا التحسن دواليك في مستوى  
الذوق من ناحية ومستوى جمال البناء وملحقاته من ناحية  
أخرى ، حتى وصلت مرافق الحياة الحضارية الى ما وصلت  
اليه من رقى ، وأثر ذلك كله في الفكر والسلوك ، وتمخض  
عن القيم الحضارية الحديثة .

ويعني ما تقدم ان أسبانيا أصبحت أكبر دول أوروبا  
عقب جلاء العرب عنها ، ولم تخشها سائر دول أوروبا  
وقتذاك ، وتخطب ودها فحسب ، ولكنها أخذت تترسم  
خطاها في مضمار الحضارة ، وتحاول محاكاتها . ونشط  
هذا الترسم ، وهذه المحاكاة في ميدان الأناقة النسوية ،  
وتتبعت نساء البلاط في كل دولة من دول أوروبا آخسر  
مبتكرات تلك الأناقة في البلاط الأسباني ، ونقلتها عنهن  
نقلا ، ثم أخذت هذه المبتكرات - وهي في الواقع تراث  
المرأة العربية التي استوطنت أسبانيا - تتسرب من نساء



قصور الملوك الى نساء الطبقات الراقية ، ثم من هؤلاء الى نساء الطبقات المتوسطة . فمن هذه الطريقة اغترفت نساء أوروبا فنون نساء العرب في التجميل والتطرية ، وسرعان ما تحضرن فأسهمن بأكبر قسط في اقامة مسرح الحضارة الأوربية .

وقد وصف كثيرون من مؤرخي الغرب الشمامائل والطبائع الجديدة التي انصفت بها أمراء الاسبان الذين حلوا محل العرب في اسبانيا بعد اجلائهم عنها ، ونزلوا في قصورهم ، ومارسوا الحياة الحضارية التي مارسوها . . . ووصف أولئك المؤرخون كذلك تأثر المرأة الأسبانية بالمرأة العربية ، ثم تسربت القيم الحضارية العربية كافة من أسبانيا الى جنوب فرنسا . . . ونذكر هنا ما يحضرنا من شواهد على ذلك :

جاء في كتاب ( التاريخ المعاصر ) للمؤلف الفرنسي القديم « روال جلابيه » ما يلي :

« كان سادة أوروبا خشنى المظهر ؛ غلاظ القلوب ، مائة النظرات ، طوال اللحى . . على حين أصبح سادة الجنوب ، بعد اتصالهم بالعرب يتأنفون في ملابسهم ، ويحيطون أنفسهم بمظاهر العز والحضارة ، »

وفي الصفحة ٧٤ من كتاب بريفو السالف الذكر ، قال المؤلف يصف مدى تأثر المرأة الفرنسية بالمرأة العربية :

« لقد تغيرت حال سيدات القصور في الجنوب ، فهن لم يعدن كما كن من قبل ، أميرات ضيقات العقول ، يحيط القساوسة بهن طول النهار ؛ بل أصبحن يلعبن الدور الأول في محيطهن ، ويتمتعن بتقديس الرجال ٠٠٠ ولقد أتيحت لهن أسباب الأناقة ، فمن الحرير ومختلف أنواع الأردية والعطور الواردة لهن من الشرق العربي ، الى الأصباغ التي لم يتورعن عن التجميل بها ، الى غير ذلك من أسباب التطرية والأناقة . وقد أشعلن بذلك نار الحسد في قلوب نساء الشمال » .

---

## تقاليد الفروسية العربية

---

**يقدر** مؤرخو الحضارة الأوربية بأهمية ما أحدثته تقاليد الفروسية من أثر في التطور الحضارى الأوروبى ، ومن أقدم المؤلفات التى تحدثت فى ذلك كتاب « شجرة المعارك الحربية » الذى وضعه القس الفرنسى « أونوريه بونيه » فى أواخر القرن الرابع عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب الى عنايته بتوضيح أثر تقاليد الفروسية فى تطوير قوانين الدول الأوربية وتهذيبها . وقد رأى « لوجوفتيل » أن الوطنية تولدت من تقاليد الفروسية وقد قال ما معناه « ان أسمى عناصر الوطنية وهى روح التضحية والتشوف الى احقاق الحق ، وحماية المظلوم .. نبتت أصلا فى تربة الفروسية » وقال الدكتور « جوهان هويزينجا » فى كتابه « تقلص العصور الوسطى » ما يلى : « ان الأحلام التى تراود الانسان عن حياة أسمى ، لها قيمة ذات أهمية



حقيقية فى تاريخ التطور الحضارى « الى ان قال : « ان الوقوف على هذه الأهمية يتطلب تقدير ما أحدثته معتقدات الفروسية من أثر فى ميادين السياسة والحرب قبيل نهاية العصر الوسيط » . وقال فى موضع آخر من كتابه المذكور : « ومعتقدات الفروسية لم تمت مع ذلك دون أن تؤتى ثمارها فقد وضعت منهجا لقواعد الشرف ومدلولات الفضيلة وكان لها أثر ملحوظ فى تطور القوانين . ان قوانين الأمم الاجتماعية والحربية نبتت فى مجاهل القلم . ولكن تقاليد الفروسية هى التى نفشت فيها الحيوية والازدهار ، ولسنا نحسب أننا فى حاجة - بعد ما تقسم - الى مزيد من الاستشهاد . ولكن المؤلم ان أغلب مؤرخى الغرب لم يروا أية صلة بين تقاليد الفروسية الأوروبية التى أحدثت الأثر الكبير فى تطور أوربا الحضارى ، وبين تقاليد الفروسية العربية فبعضهم يزعم أن الغربيين ورثوا هذه التقاليد عن الاغريق . ويزعم بعضهم انها ثمرة تعاليم المسيحية وما أشد ضلال هؤلاء وهؤلاء !

ان التربة العربية هى التى أنبتت بذور تقاليد الفروسية الأولى ولهذه الحقيقة الواقعية أسباب وعليها أدلة وشواهد فأما الاسباب فسيرد ذكرها فى موضع آخر من هذا الكتاب . وأما الأدلة والشواهد فيتوصل أهمها فيما يلى :

من يستعرض الملاحم الاغريقية التى تسرد سير ابطال اليونان القديمة، وترسم مختلف الصور لمغامراتهم

البطولية يجدها لا تحدث ، الا عن الشجاعة البدائية الوحشية ، والحب الجسدى الآثر ، أما تقاليد الفروسية التى تحدث عنها فلا يبدو لها فى تلك الملاحم اثر . ومن غير المعقول أن يكون ابطال اليونان القديمة متحلين بها ، ولا ينعكس ذلك فى الاعمال الأدبية المذكورة . وهذا يدحض قول من يزعمون ان تقاليد الفروسية الأوربية التى ازدهرت فى أواخر القرن الوسيط موروثة عن الاغريق .

أما تعاليم المسيحية فتبشر حقا بالرحمة والايشار والتضحية وغير ذلك من العواطف النبيلة . ولكنها تختلف عن تقاليد الفروسية فى ان معتنقها المتشبع بروحها يقف من الملهمات موقفا سلبيا مستندا الى انتسامح والغفران على حين أن الفارس المتشبع بتقاليد الفروسية العربية يقف من الشدائد موقفا ايجابيا ينصر فيه الحق على الباطل بحد سيفه . . ولو صدق الذين ينسبون تقاليد الفروسية الأوربية الى تعاليم المسيحية لأحدثت تلك التعاليم أثرها منذ القرون الميلادية الأولى ، ولما تأخر ظهورها الى القرن الثانى عشر الميلادى .

وفى قصة الفارس دون كيشوت المشهورة دليل حى على صحة ما نقول فلو اننا أبعدنا عن ذلك الفارس اللوثة التى ألصقها به المؤلف لتحقيق هدفه من قصته - وهو تصوير مخبول يتشبث بأذيال الماضى ، ويحسب أنه يعيش فى زمن ولى واندثر - لوجدنا ان دون كيشوت

يمثل الفارس العربى القديم ، وان تقاليد الفروسية  
الأوربية التى يعتنقها ويتناضل فى سبيلها هى بعينها تقاليد  
الفروسية العربية . ألم يكن يجابه المكاره ؛ ويتعرض  
لألوان الأذى باسم حبيبته وفى سبيلها ، لغوث المظلوم ،  
واحقاق الحق وازهاق الباطل ، واجتثاث الشرور من جذورها ؟  
.. وشعر الحماسة والفخر فى عهد الجاهليين ، وفى  
مطلع الاسلام يبرز لنا هذه المعانى فى أجلى صورها ؟ ..  
.. وها هى ذى قصة عنتره العيسى تصور لنا الطور الأول  
لتقاليد الفروسية العربية ألم يخض ذلك الفارس العربى  
القديم غمار الحروب باسم حبيبته ، وفى سبيل الدفاع  
عنها ، وتأديب الطامعين فيها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل  
منى وحد البيض يقطر من دمي ؟  
ووجدت تقبيل السيوف لأنها  
لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

ألم يتجشم الأسفار ، ويجوب الامصار ؛ ويتعرض  
لموارد الهلاك ، كيما يحقق أمنية لحبيبته ، أو يجيب لها  
طلبها ؟ ..

وهل بيننا من لم يقرأ قصة الحروب الصليبية ولم  
يعرف موقف العرب وموقف الفرنجة منها ؟ .. لقد  
اعترف كثيرون من كتاب أوروبا المنصفين بما كان من فرق  
شاسع فى بدء نشوب تلك الحروب بين تقاليد الفروسية



العربية والأوربية ، ثم بما لحق بهذه التقاليد الأخيرة من  
تغير ، نتيجة لاحتكاك فرسان الغرب بفرسان العرب .  
لقد تعلم أولئك من هؤلاء المحافظة على أرواح الأسرى ،  
وحسن معاملتهم ، واحترام المرأة ، كما تعلموا أصول  
الحرب الشريفة ، والرحمة والكرم والتخوة ، وغير ذلك  
من السمائل الانسانية السامية .

وحدث في الحروب التي نشبت في الأندلس ، وفي  
جنوب فرنسا بين العرب من ناحية ، والأسبان والفرنسيين  
من ناحية أخرى مثلما حدث في الحروب الصليبية ، وتلقن  
الفرجنة هنا وهناك أصول الفروسية العربية النبيلة .

ونشير أخيرا الى أن بعض مؤرخى الغرب الذين  
ينكرون كل صلة بين تقاليد الفروسية العربية ، وتقاليد  
الفروسية الأوربية ؛ يدللون على وجهة نظرهم هذه بأن  
الفرسان العرب كانوا أفرادا يتحلون ببعض صفات  
الشجاعة ، أما الفروسية في أوربا فكانت نظاما طبقيا  
له أصول مفصلة، ومنهج مرسوم معلوم !! ومن العجيب  
أن بعض كتابنا العرب يكررون اليوم هذا القول بغير  
وعى ، وغير هدف ، فهل يحسبون أن العرب متهمون  
بمحاكاة تقاليد الفروسية الأوربية ، وإن من واجبهم  
دحض ذلك ؟ ألم يفتنوا الى أنهم يجردون العرب بهذا  
القول المغرض ، من فضل تلقين الأوربيين أصول الفروسية  
التي لعبت أخطر دور في التطور الحضارى الحديث ؟ .

قال المؤرخ « هويزنجا » فى صفحة ٧٠ من كتابه المذكور مستشهدا برأى المؤرخ السويسرى « شاستيليان » « عرفت القرون الوسطى لونا جديدا من الشرف والمجد يشمل فئة من الناس بعينها ، أو طبقة متميزة ، ولكن المظنون أن تطلع انفارس الى المجد نشأ أول ما نشأ فى ايطاليا ، وظهرت بواذره فى أفراد متفرقين » . والواقع ان تقاليد الفروسية العربية انتشرت فى أوربا خلال العصر الوسيط ، ولم تخضع لنظام الاقطاع الذى كان سائدا هناك وقتذاك ، وتتحول من تقليد يتبعه الافراد الى تقليد طبقى الا بعد أن احتكرها الامراء والأشراف واذا كان هذا التحول أفقدها بعض ميزاتها ، فانه لم ينل كثيرا من تأثيرها الفعال فى تطور الحضارة الأوربية ، والسمو بها الى المستوى الذى سمت اليه .

وهناك قراء لا يطمثون الى رأى الا اذا وقفوا على مرجعه الأجنبى ، ولا يهم بعد ذلك أن يقام لهم ألف دليل دافع على صحته فالى هؤلاء القراء المراجع التالية :

« تقاليد الفروسية العربية سابقة على نظيراتها فى أوربا » - الجريدة الاسيوية - ( الجزء الثامن من المجلد الرابع عام ١٨٤٩ ) .

« تدل الدلائل على أن نظام الفروسية أقدم عند العرب منه عند المسيحيين » ( هامير - بورجستال ) .

« تقاليد الفروسية نشأت في الأصل بين مختلف  
الأمم العربية والأمم السبع » ( كتاب « دراسات وخطب »  
ص ٣٩٦ لشتاوبريون ) .

« كم من دروس في تقاليد الشرف والتسامي والنبيل  
تلقنها الصليبيون الهمج عن فرسان الاسلام » ( كتاب  
الشعراء التروبادور ص ٧٥ ) .

« أقدم ريتشارد قلب الأسد ، ملك الانجليز ، على  
قتل الأسرى المسلمين أمام صلاح الدين ، فلم يعامله البطل  
العربي بالمثل ، وعاد بالأسرى المسيحيين الى دمشق دون  
أن يمسهم بسوء . فأى الرجلين أكثر تحلياً بتقاليد  
الفروسية ؟ » ( من كتاب « تاريخ أورشليم للمؤرخين »  
« بيسان » و « يالميه » ) .



---

## الفنون العربية

---

**بحسب** كثيرون من أهل الفكر في الشرق أن العرب الذين برزوا في بعض الميادين العلمية ؛ قصروا كل التقصير في ميدان الابداع الفني ، وقد قال ابن خلدون نفسه في ذلك : « ليس للعرب فن الا فن الشعر » .

ولكن هذا القول لا يمكن قبوله على عواهنه ، واذا نحن سلمنا جدلا بأن العرب لم يبرزوا في ميدان الفن - باستثناء الشعر - فانهم قد أمدوا الأوربيين بمعارف فنية كانت السبب في نبوغهم الباهر في هذا المضمار .

لا يخفى أن تاريخ الفنون العربية عاقل من فن المسرح وقد خاضت الأقلام المختلفة الأجناس في أسباب ذلك وكانت تجمع على أن طبيعة الجزيرة العربية الصحراوية التي فرضت على سكانها التنقل من مكان الى مكان بحثا عن عيون الماء ؛ وعن المراعى الجديدة .. وحالت دون

قيام المدن الكبيرة ، هي التي لم تتح الظروف الملائمة  
لنشأة فن مسرحي في تلك البلاد .

ولكننا لا نرى لهذا الرأي وجهة ، فما دامت هذه  
الطبيعة الصحراوية للجزيرة لم تحل دون قيام سوق  
عكاظ ، ودون ازدهار محافل الادب ، فقد كانت قمينة  
كذلك ألا تحول دون قيام المسرح .

والذي نراه أن الاغريق ؛ وهم أول من برزوا في  
ميدان الفن المسرحي لم يقصدوا باقامة المسارح في بلادهم  
الا أن يجسدوا آلهتهم على خشبتها ، وبعبارة أوضح ؛  
لم يقصدوا الا أن يحيلوا أوهامهم الاسطورية الى حقائق  
مجسدة . وهذا لا يعنى أن المسرحيات الاغريقية ظلت  
مرتبطة بهذا السبب الأساسي في ظهورها فقد تطورت بعد  
ذلك وانقصمت صلتها به اما الأدب العربي وقتذاك فكان  
طبيعيا يعكس الواقع ويجسده دون أن يحتاج الى مسرح  
يجسده تجسيده . ثم ان العرب كانوا يتشبهون بتقاليدهم  
ويراثهم الأدبي ، ويعتزون بهما كل الاعتزاز . فكانت  
المعلقات والقصائد هي التي تستأثر بأفئدتهم وعقولهم .  
ومن الطبيعي أن يعجز المسرح بعد ذلك عن منافسة سوق  
عكاظ ، وأن يقوم الى جانبه .

ومن المعلوم كذلك أن فن التصوير والنحت لم يربح  
بين المسلمين الذين كرهوا التماثيل والصور لعلاقتها  
بتهاويل الوثنية ونصبها وتماثيلها . ولكن وطأة هذه

الكراهية خفت كثيرا لدى العرب في الأندلس . فهم لم يجدوا حرجا بعد أن وصلوا الى مرحلة حضارية متقدمة ، فى أن يزاولوا فنى النحت والتصوير .

وإذا اكتفينا بالاشارة الى الأشكال الزخرفية التى حليت بها الجوامع والأضرحة والقصور العربية ، والتى لا ينكر أحد روعة ما عكسته من جمال شكلى ؛ ومدى ما أحدثته مبتكراتها الطريفة من أثر فى الذوق الاوروبى . . اذا اكتفينا بذلك لأن أمرها معلوم ، فان الذى يستحق التحدث عنه هو الصور الملونة التى تزين سقف ( قاعة الملوك ) فى قصر الحمراء فهذه الصور تمثل فرسان العرب وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية ، وسدد بعضهم الآخر رماحه الى صدور أعدائه ، وهى تمثل كذلك حسان العرب ، وحيوانات مختلفة ، وأشجارا ونباتات متنوعة . وقد حاول بعض الاوربيين أن ينكروا على العرب قيام فنانيهم بابتداع هذه الآيات الفنية ، ولكنهم لم يقدموا دليلا واحدا على صحة ما ذهبوا اليه . وقد تصدى « دى جايونجو » لأولئك المنكرين ، وفند زعمهم ، مؤكدا ان يدا عربية هى التى رسمت تلك الصور ، ومن الأدلة التى قدمها فى هذا الصدد ان ألوان تلك الصور وأسساليب رسمها عربية صميمة ، وان العربى وحده هو الذى يرسم الفرسان العرب وهم يصرعون أعداءهم المسيحيين ( كتاب الشعراء التروبادور ص ٨١ ، ٨٢ ) .



ومن ثم تعلم رسامو أوروبا أن يزينوا أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة . ولعلمهم اتخذوا من تلك الصور العربية نماذج لهم ، أو اتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفنى الذى حققوه بعد ذلك .

وهناك تحفة فنية فى متحف اللوفر تدل على مبلغ ما وصل اليه العرب من مستوى رفيع فى فن الحضرة . هذه التحفة التى عشر عليها الأسبان فى قرطبة، والتى يدل تاريخها على انها صنعت سنة ٦٦٨ م ، عبارة عن علبة خشبية اسطوانية حفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود ، وتغنى الأخريات . . . وصور غزلان ونمور وفهود ( المرجع نفسه ص ٢٩ ) .

بيد أن أهم ما يستحق التنويه فى هذا الصدد هو الأثر الكبير الذى ، أحدثته فنون الموسيقى والغناء والرقص فى فنون أوروبا المماثلة لها !! .

يحسب أكثر الناس أن هذه الفنون الثلاثة متخلفة عند العرب أو أنها عندهم من لون مختلف كل الاختلاف عن لون نظيراتها فى أوروبا والا صلة بين هذه وتلك ، ومن ثم لا يكون للأولى أى تأثير فى الثانية : - ولكن الذى يدرس تاريخ الموسيقى الأوربية يدرك مدى خطأ هذا القول .

ونحن نكتفى هنا ، للتدليل على صحة ما نذهب اليه ، بنقل بند من المرجع السابق الذكر ، وأورده فى ص ٢٨ .

« لم يكف العرب عن تجويد آلاتهم الموسيقية التي نقلوا أصلها البدائي عن بلاد فارس وغيرها ، ثم ابتلعوا الربابة من آلة القوس ذى الوتر الواحد . . ومن الربابة العربية عرفت أوربا الكمنجة ، وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على اللوت والعود والقانون ، وتطور الموسيقى يتوقف كذلك في عصرنا الحاضر على ما يمكن ادخاله على آلاتها من تحسين . . ولولا آلة « الكلافن » التي تولدت من « قانون التخت » ولولا الكمنجة التي تولدت من الربابة لثقلت عبقرية « باخ » . « وموزار » خرساء ، ولظلت أذننا صماء لا تسمع النغمات الساحرة التي تشجيتها وتسكرها في هذه الأيام » .

لهذه الصراحة اعترف هذا الأوربي الصادق بأن الموسيقى الأوربية مدينة للعرب بالمستوى الرفيع الذي وصلت إليه في عصرنا الحاضر . وإذا كانت هذه الواقعة تحتاج الى مزيد من الاستشهاد - وهي لا تحتاج إليه - فليرجع القارئ الى كتاب : « التاريخ العام للموسيقى » تأليف ل . فيتيس . ونحن نكتفى بأن ننقل العبارة التالية من صفحة ٧ من جزئه الخامس فهي تتضمن اعترافا صريحا بما نقرره « الموسيقى الأوربية بنيت في أواخر القرون الوسطى من أصل عربي » .

وكان العرب أول من طوروا فن النظم ، وقرضوا الشعر الغنائي الملائم للنغم الموسيقي ، وفي الحفلات

الغنائية التي اشتهرت بها قصور بغداد ، ثم قصور  
الأندلس بعد ذلك ، ارتقى فن الغناء على نغمات الموسيقى  
وكان لفن العروض الدقيق ، المتنوع التفاعيل ، المتفرد  
بين الأوزان الشعرية في العالم كله ، فضل كبير في  
ذلك . وقد واصل شعراء الأندلس تطوير الشعر ليجعلوه  
أكثر ملاءمة للغناء ، فنظموا الموشحات ذات القوافي المتبدلة  
فازداد فن الغناء وفن الموسيقى العربيين ارتقاء ، على حين  
لم تكن أوروبا تعرف الا الغناء البدائي ، ونغمات القينار  
والمزمار غير الموقعة .

وفطن الموسيقيون العرب ، بأوزان الشعر العربي  
الدقيقة المضبوطة ، الى التوقيت الموسيقى ، الذي أصبح  
أساس النهضة الموسيقية العربية، ولعل الرقص على نغمات  
الموسيقى المنوعة النغمات - وهو ابتداء عربي كذلك (١)  
ساعد على اتفاق التوقيت الموسيقى اذ كانت خطوات  
الراقصين تجرى بميقات خاضعة لدقات أكف النظارة .  
واذا طالبنا قارئ بالدليل على أن أوروبا كانت على  
صلة بتلك الفنون العربية تمكناها من تلقينها ، أو الافادة  
منها ؛ فاننا نحيله الى كتاب المؤرخ الفيلسوف رينان  
في كتابه « ابن رشد وفلسفته » صفحة ١٥٩ حيث قال :

---

(١) أخذت الموسيقى المستحدثة تسير قدما في مدارج الرقي منذ  
أخذت الأندلسيات يرقصن في قانس لأول مرة على أنغام الصاجات  
ومختلف الآلات الموسيقية ذلك لأنها عرفت الأوزان عن تلك الطريق  
( دى ساس في كتاب بحث أول في الأوزان والتفاعيل العربية ص ٢ ) .



« ان استيراد أوروبا للأعمال الأدبية العربية يومذاك أمر معروف وكان الكتاب الذي يصدر في مراكش أو في القاهرة يشيع ذكره بين مختلف البلاد الأوروبية في سرعة أقل من السرعة التي يستغرقها انتقال الكتاب الهام من عاصمة ألمانيا الى الشاطيء الآخر لنهر الرين » وقال جون روا في كتابه « منابت الشعر الغنائي » : « كانت الاغاني العربية الأندلسية تنتشر في سرعة تفوق سرعة انتشار الكتب . وقد ارتقى فن الرقص عندنا ( المقصود فرنسا في أوائل العصر الحديث ) ولكن كيف ؟ ارتقى بتوجيه الأندلس ، مهد فن الرقص ، ومصدر الشعر الغنائي في القرنين الأخيرين وقد أحكم بريفو حلقة هذا البحث بقوله في كتابه السابق ذكره ص ٦٤ : « لقد ازدهر الشعر الغنائي بين ربوع جنوب فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر ، وأوائل القرن الثاني عشر ، أي عقب استرداد طليطلة من العرب عام ١٠٨٦ ، وسرقسطه عام ١١١٨ ، فقد عني البلاط الاسباني بهذا الشعر وبتطويره . ولم يهتم به الفرنسيون في هذا الوقت بالذات من قبيل المصادفة » .

ومن المعلوم ان الشعراء التروبادور ، وسيأتي ذكرهم فيما بعد ، هم الذين روجوا هذا الشعر في أوروبا .

وننتقل بعد ذلك الى ميدان آخر من ميادين الفنون العربية الذي اغترفت منه أوروبا اغترافا . . وهو ميدان فنون المعمار

— والزخرفة وتنسيق الحدائق . . وقد أشرنا الى ذلك  
لما في مواضع سابقه من هذا الكتاب ، ونحن ننوي  
هنا الا تطيل كذلك في شرح مدى افادة أوروبا من العرب  
في دائرة هذه الفنون فالأمر معروف بل مشهور . وفي  
قصر الحمراء الذي لا يزال قائما خير شاهد ماى عليه  
. . بل ان الآثار الباقية من قصور بغداد والقاهرة  
تنطق بصحته . وتدل على مبلغ ما وصل اليه فن الزخرفة  
عند العرب من اتقان وسمو ، ووصف لنا بعض المؤرخين  
القدامى حدائق قصور القاهرة وبغداد وطيطة فقالوا ان  
أرض ممراتها مفروشة بالجص الملون ، وحفافها مصنوعة  
من الذهب ، وجذوع أشجارها مكسوة بأوراق فضية .  
وكانت الوسائد الجلدية الملونة المنفوخة تطفو على سطح  
ماء نوافيرها ، وتدور مع الماء الدائر ، وفوقها العازقات  
والقيان وهن يرددن عزفهن وغناءهن .

وفي وصف البحترى للبركة في قصيدته الهائية ،  
شاهد جديد على مبلغ اتقان العرب لفن انشاء الحدائق .

واذا كان بعض الناس يحسبون أن العرب لم يمارسوا  
نحت التماثيل فان الشعر الأندلسي ، الذي وصف تماثيل  
الأسود في الحدائق والماء ينصب من أفواهها ؛ يدحض  
حسبانهم وربما طالبنا قارئ بالدليل على أن أوروبا تلقنت  
هذه الفنون عن العرب . . وكثيرا ما يعوز المرء الدليل ،

فتخل محله الشواهد القاطعة التي تغني عنه . . لقد قلنا ان ملوك أوربا سكنوا القصور بعد القلاع . خلال اتصالهم الأول بالعرب ، وأنشئوا الحدائق في هذه الحقبة بالذات أيضا . فهل وقع ذلك مصادفة ؟ . . أليس فيما قدمناه من وقائع وأدلة ما يجزئ بأن الأوربيين تعلموا من العرب مختلف الفنون والعلوم ؟ فكيف نفترض أنهم استثنوا فنون المعمار والزخرفة ، وتنسيق الحدائق فلم يتلقوها عنهم ؟ ان استعراض الاتجاهات الحضارية الأوربية في مجموعها ، عقب اتصال الأوربيين بالعرب ، ومقارنتها بالاتجاهات الحضارية العربية يقطع بأن الأولى وليدة الثانية .

ثم ان القصص والمسرحيات الأوربية ، التي كتبت في أوائل العصر الحديث تتحدث عن سحر الشرق . . . وعن الرياح التي تملأ شراع السفن لتدفعها من الشرق الى الغرب ، محملة بأفخر المنتجات الشرقية . وعن أثر تلك المنتجات في تمييز الطبقة الراقية عن طبقة العامة . . ولعل بقايا ذلك الاعجاب والتأثر من سحر الشرق ما زال مغروسا في نفوس بعض الأوربيين .

أما ارتقاء الصناعات الأوربية بعد محاكاتها بصناعات الشرق العربي فأمره معلوم . ونحن نسوق على سبيل المثال واقعة أحسب أن القراء يعرفونها جميعا ، لاتساع شهرتها ، وهي الساعة التي أهداها هارون الرشيد



لشلمان ملك فرنسا فى العهد الذى لم تعرف فيه أوروبا  
الزمن الا بزحف الظلال - أو بأنابيب الرمال - فقد  
خاف القوم هناك من تلك الساعة ، متوهمين ان  
الشیطان يتقمصها ويدير تروسها ، ثم لم يلبثوا ان  
امتحنوها ووقفوا على سر حركتها ، واستطاعوا بعد جهد  
ان يصنعوا مثلها ، ومن ثم ازدهرت فى أوروبا صناعة  
الساعات .

---

## الأدب العربي والحضارة

---

إذا كان الأدب يتأثر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في كل أمة ، ويتطور خاضعا لها فانه يكر ثانياة فيؤثر في تلك الأمة ، ويهز أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، ويلعب أخطر دور في تطويرها وأى عجب في ذلك وهو يخوض معمة النضال في سبيل التقدم والرقى ، فيعبر بعضه عن الآراء الرجعية المنهزمة ويعبر بعضه الآخر عن الآراء الجديدة البناءة ، وتكتب الغلبة لهذا الجانب الأخير منه في النهاية ، بناء على سنة التطور وانتصار الجديد على القديم .

واذا طبقنا ما تقدم على ما نحن بصدده قلنا : ان النهضة الأدبية التي أثرت في أوروبا أبان القرن الثاني عشر لعبت دورا رئيسيا في اقامة صرح الحضارة الأوربية ؛ ونحن نقرر ان النهضة الأدبية المذكورة مدينة في كل

مقوماتها لأدب العرب ، فاذا أقمنا الدليل على ذلك أقمناه  
على أن العرب هم الذين لعبوا الدور الرئيسى فى تطوير  
الحضارة الاوربية الحديثة .. فى هذا الميدان الأساسى  
أيضاً .

ويحسن بنا أن نسوق نبذة قصيرة خاطفة عن تطور  
الأدب منذ نشأته ، حتى يسهل وقوف القارئ على الفروق  
الرئيسية بين طابع الأدب الوثنى الذى اتسم به أدب  
الاغريق ؛ والأدب الأوربى المحاكى له من ناحية ؛ وبين  
طابع الادب العربى الواقعى للانسان .

قص الكهنة الوثنيون القصص الأسطورية الأولى  
التي كانوا يصوغونها تفسيراً لظواهر الوجود المحيط بهم  
وأحداثه المتقلبة ؛ التي كانت توفر لهم الخير حيناً وتصيبهم  
بالشر حيناً آخر ، ولكنهم لم يدركوا الوجود الا على النحو  
الذى صوروه لهم ذهنهم القاصر ، ومعارفهم الناقصة ؛  
وأوهامهم التي يشحذها الخوف من المجهول ، ويعرج بها  
عن دنيا الخرافات والأضاليل ؛ كانوا يظنون أن وراء  
تلك الظواهر ، والأحداث المتعاقبة عليهم ، قوى خفية  
تخفيها وتوجهها وفق هوائها فرمzوا الى تلك القوى بمختلف  
الرموز ، وسجلوا معتقداتهم — أو أوهامهم فى قصصهم  
الرمزية الأسطورية ، التي يدل التاريخ على أنها نواة  
القصة التي تطورت بعد ذلك وسما اليوم دوحها وتفرع  
وتشعب .



ولا يفوتنا هنا ان نشير اشارة عابرة الى ان القصة كانت منذ نشأتها الاولى تستهدف أهدافا اجتماعية . فقد حاول أولئك الكهنة البدائيون في قصصهم الأسطورية المذكورة أن يوطدوا المثل الاخلاقية القومية القويمة التي تدعم نظام المجتمع ، وتوطد أركان أمنه واستقراره ، وأن يجعلوها وسيلة الفوز برضا القوى الخفية والنجاة من شرها والتنعيم بآلائها أى يجعلوها وسيلة ازدهار الحياة وارتفاع مستواها .

وليست بعض القصص المصرية الوثنية القديمة ، ثم ملاحم الاغريق ومسرحياتهم الا خطوات خطتها القصة في مراحل تطورها التاريخي وقد لاحظ هيجل تطور الفكر عبر الزمن . وكان أول من فطن الى ارتباط الأعمال الأدبية التاريخية بعصرها ، ومما قاله في صدد تطور القصة انها انتقلت في عهد الاغريق من مرحلة الرمز الى مرحلة التجسيد .

ولكن فات هيجل ان يقدماء المصريين هم الذين خطوا الخطوة الأولى في نقل القصة الى مرحلة التجسيد . وما أدب الاغريق التجسیدی الا امتدادا لما بدأه المصريون .

لم يعد الاغريق يرون القوى المتصرفة في شئون الكون قوى خفية غامضة ؛ كما رأها من سبقوهم ؛ ولم يرمزوا لها بالنار أو الشمس أو العجل أو غير ذلك من الرموز ؛ ولكنهم جعلوا لكل عنصر من عناصر الطبيعة ، وكل عاطفة من العواطف البشرية ، وكل عامل من العوامل

المؤثرة في المجتمع ، لها يتصرف في حدود ملكونه  
وفق مشيئته وجسدوه في صورة انسان لا يكاد يختلف  
عن سائر البشر شكلا ومعنى . وامتلات أعمالهم الادبية  
بتصوير ما نعم به الناس من آلاء الخيرين من أولئك  
الأرباب ، وما أصابهم من عنت العتاة منهم ، وما بذلوا من  
جهد للخلاص من حبال المقدور ، واستدرار عطف الأرباب  
وغفرانهم .

ومن معنى هذه المؤلفات الاغريقية انبثق الأدب  
الأوربي خلال الشطر الأكبر من العصر الوسيط ؛ ولكن  
لونا جديدا من الادب لاحت بشائره كذلك في أوربا مع  
حلول القرن الثاني عشر ، واختلف كل الاختلاف في  
شكله ومضمونه عن تلك المؤلفات الاغريقية ، ولم يستمد  
حياته وازدهاره من أى مصدر من مصادر الأدب الاوربي  
.. فكيف نشأ هذا الادب الجديد ؟ .. أنشأ شيطانيا دون  
جذور تمدد بأسباب ازدهاره ؟ .. أهناك شىء ينشأ  
تلقائيا دون أن تنهيا ظروف نشأته وأسبابها ؟ ... لابد  
لكل نهضة أدبية جديدة السمات من أساس تقوم عليه ،  
شأنها في ذلك شأن سائر الظواهر الاجتماعية والطبيعية  
.. فهي اما أن تقوم كلية على أساس ماضيها المنظور ،  
واما أن تنتعش بنسمات ثقافية جديدة تهب عليها من  
الخارج ، وتلائم اتجاهاتها الفكرية والعاطفية .

ونحن نزعم هنا أن الأدب الجديد الذى ازدهر  
في أوربا قبيل عهد احياء العلوم هو وليد التزاوج بين

الوعي الثقافي الاوربي ؛ الذى أخذ ينمو حينذاك ؛ والثقافة العربية التى زحفت الى بعض الدول الاوربية من اسبانيا وصقلية ونبنى زعمنا هذا على أنه أى ذلك الأدب الاوربي الجديد - يشبه الأدب العربى شكلا ومضمونا ، ولا يشبه غيره من سائر الآداب التى عرفتها أوربا قبل ذلك .

وقد أشار المؤرخ الأدبى « بيار ديه » الى هذا الاتصال ونتائجه فى كتابه « القصص فى سبعة قرون » ؛ وذكر فى صحيفة ٤٢ من الكتاب المذكور ما يلى :

« ونحن لا نستطيع أن نحدد طبيعة اتصال الصليبيين بالعرب واحتكاكهم بالحضارة العربية ، ولكن الذى لم يعد مجهولا هو ما أسفر عنه ذلك الاتصال والاحتكاك من نتائج اقتصادية وأيدولوجية ، وما تبع ذلك من تطور طرأ على ذوق الأوربيين الحضارى ، ومما تسرب الى الاوربيين عن هذا الطريق ؛ وعن طريق اسبانيا ؛ ميلهم الى تعلم أسباب الرفاهية المعيشية . ويكفى أن نضرب بالملك بودوان الاول مثلا يدل على مبلغ محاكاة الصليبيين للعادات العربية . فقد أخذ الملك يتصرف تصرف السلاطين العرب ، ويحيط نفسه بمثل مظاهرهم فى بساطة ، ودون أى حرج ، وقد ورد فى هامش الصفحة المذكورة « ونشير هنا بهذه المناسبة ، الى اتجاه معاد للعرب ، يحاول فى غير وعى أن يتحاشى ، لدى شرح تاريخ الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط ذكر ما أفاده ذلك الأدب من عناصر الحضارة العربية والأندلسية ... »

وذكر المؤرخ سالف الذكر ثلاث قصص ظهرت  
في النصف الثاني من القرن الثاني عشر هي : « قصة  
طيبة » و « أنياس » و « قصة طروادة الحديثة » . . .  
فقال عنها : « انها لون جديد في الأدب الفرنسي يختلف  
عما سبقه كل الاختلاف » ؛ ثم ذكر في صحيفة ١٧ من  
كتابه المذكور « ومؤلفو تلك القصص عاشوا في عصر  
انتشر فيه الفكر الاغريقي القديم . . ولكن الفكر العربي  
ذاع خلاله أيضاً ، وعم أرجاء العالم الغربي . . » .

ومن المعروف أن نهضة أدبية فكرية عربية ازدهرت  
في الاندلس على أثر فتح العرب لتلك البلاد ، وبرغم أن  
هذه النهضة تأثرت الى حد ما بالثقافة الرومانية الاسبانية  
المحلية ، الا أنها احتفظت بأغلب مقوماتها العربية  
الأصيلة . . هذه النهضة استطاعت أن تجلي الثقافة  
الاسبانية المحلية عن الميدان وتحل محلها ، وكم من الأدباء  
الأسبان الذين خالطوا العرب نزحوا الى المناطق التي  
يحتلها مواطنوهم في الشمال ، ونقلوا معهم عن العرب  
ألوان الادب الجديد ؛ وروجوه هناك . . وكم من أدباء  
عرب وقعوا أسرى في قبضة الأمراء الأسبان المستعصمين  
بالمناطق الشمالية ؛ فقاموا بمثل المهمة التي قام بها  
الأدباء الأسبان . . وقد طال إهمال الباحثين لمدى ما أحدثه  
أولئك الأدباء العرب من تأثير في الاتجاه الادبي الاسباني  
بعد اتصالها بأدباء بلاط الأمراء ، الذين أسروهم ، بيد  
أن بعض مؤرخي الأدب الفرنسيين والاسبان بدءوا يسدون



هذا النقص أخيرا ، ويستقصون هذا التأثير وغيره مما أحدثه العرب في الفكر الأسباني ، ومن ثم في الفكر الأوربي ومن بين هؤلاء الباحثين الذين ألقوا بعض الضوء على هذا الموضوع « جان فرايبه » و « بيرديه » الفرنسيان و « ميننديز بيدال » الأسباني . . ونحن لن ننساق وراء بعض كتابنا الذين يعتمدون على قيام تشابه بين قصص غربية معدودة ، وأخرى عربية ، للجزم بتولد النهضة الأدبية الغربية في أواخر العصر الوسيط ؛ من الثقافة العربية ، فان قيام التشابه المذكور قد يعد قرينة على ذلك ، ولكنه ليس دليلا حاسما بحال . . اذا اقتبس أحد كتابنا قصة من الأدب الياباني مثلا ، وحذا آخر حذوه ونسج ثالث على منوالهما ، فهل يصح أن يعتمد كاتب على ذلك فيزعم أن نهضتنا الأدبية تولدت من الأدب الياباني ؟ . . .

ان مثل هذا التدليل لا يقنع أحدا ؛ أما التدليل المقنع فيقوم على اثبات انطباع الأدب الأوربي في عمومته بطابع الأدب العربي بعد اتصاله به ، واستعارة خصائصه ومقوماته فيه . . وسنشير في الفصل التالي الى الفروق بين خصائص كل من الأدب الإغريقي والأدب العربي ، ثم الأدب الأوربي بعد تأثره بهذا الأدب الأخير . .

قلنا فيما تقدم : ان مثل العرب الفكرية والاخلاقية ومعانيهم الأدبية ، كانت تنتقل أثناء اقامتهم بشبه جزيرة أسبانيا الى شمالها حيث اعتصم بعض الأسبان بجبالها ؛

ومن ثم كانت تتغلغل الى جنوب فرنسا ، وشمال ايطاليا فلما جلا العرب عن الاندلس ، قامت دولة اسبانية جديدة كبرى ذات ثروة وهيبة ؛ وقوة عسكرية باطشة . . دولة بهرت الدول الأوربية التي أخذت تقتبس تقاليدھا وعاداتھا، وتتأثر باتجاهاتها الفكرية ، بل تحاكيها في كل خطوة تخطوها . . هذه الدولة الاسبانية الجديدة هي في الواقع وليدة الحضارة العربية ؛ أو وليدة تزاوج الحضارتين العربية والرومانية .

وكل مطلع على تاريخ أوربا يدرك ما سبق لنا تقريره ، وهو أن هذه الدولة الاسبانية أصبحت وهي في ابانها أكبر دول أوربا ، ومحط أنظارها ، والمصدر الذي استقت منه أسس حضارتها الحديثة .

وعلينا أن ندلل الآن على اتصال الادب العربي بالادب الأوربي في الحقبة التي انتعش فيها هذا الادب الأخير ؛ أي في الحقبة الممتدة من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي الى أوائل القرن الرابع عشر ، ثم نتطرق الى ما أحدثه الأدب الأول في الأخير من اثر .

يلاحظ الذين درسوا الادب الأوربي وتطوره قبل العصر الحديث ؛ ان الشعراء التروبادور هم الذين أحدثوا أكبر أثر فيه ، بل لقد غيروا اتجاهه ، وسددوا خطاه ، فتبدلت حاله كل التبدل حتى عرف السبيل القويم .

والتروبادور هم الشعراء المنشدون الجوالون الذين  
ظهروا أول ما ظهرتوا في أسبانيا خلال القرن العاشر  
الميلادي ، وكانت أناشيدهم ؛ على ما يبدو ، لونا من الزجل  
العربي (١) الذي تطور ودخلت عليه كلمات أسبانية ، ثم  
أصبح مزيجاً من اللغتين العربية والاسبانية ، ولكنه لم  
يفقد خصائص الشعر الأندلسي وميزاته الشعرية ، وقد  
وردت إشارة عابرة عن ذلك في الصفحة السابعة من كتاب  
« الشعراء الفرنسيون » للكاتب الفرنسي « اميل هنريو »  
قال المؤلف : « ازدهرت منظومات الشعراء التروبادور  
في جنوب فرنسا منذ أواخر القرن الحادي عشر الى أوائل  
القرن الرابع عشر ، وعاصر ذلك ازدهار شعر زملائهم  
في جنوب أسبانيا ، وشمال إيطاليا وكان هؤلاء الشعراء  
المختلفو الأجناس ينظمون شعرهم بلغة واحدة هي خليط  
من اللغات الإيطالية والفرنسية والاسبانية ؛ وكانت  
هذه اللغة الأخيرة هي الغالبة ٠٠٠ ويرى البعض أن  
للعرب الفضل في ازدهار هذا اللون الجديد من الشعر ،  
وقد حدث ذلك عن طريق غزو العرب لآسبانيا من ناحية ،  
واتصالهم بالأوروبيين خلال الحروب الصليبية من ناحية  
أخرى ، ووصف المؤلف كذلك في مواضع مختلفة من  
كتابه المذكور أناشيد الشعراء التروبادور بأنها رقيقة  
العبارات والمعاني ، انسانية الاتجاهات فياضة بالحيوية ،

---

(١) أول من نظم الزجل العربي هو «مقدم بن الجبري» الأندلسي وقد  
عاش في الأندلس خلال القرن العاشر .

وقرر أن الاتجاهات الجديدة لكثير من الأعمال الأوروبية تولدت منها .

وظهر الشعراء التروبادور في ألمانيا ، ورددوا الشعر الغنائي نفسه الذي رده زملاؤهم في اسبانيا ، ثم في فرنسا وإيطاليا .

وأحدث ذلك أثره البالغ في الأدب الألماني الناشئ ولكن المتعصبين من المؤرخين الألمان أنكروا قيام أية صلة بين شعرائهم المنشدين ( التروبادور ) وبين زملائهم الأسبان والفرنسيين ، وادعوا أن شعرهم الغنائي نبت من جذور الأغاني الشعبية الألمانية . وقد سخر المؤرخون الفرنسيون بحق من أولئك الألمان ، ولكن النعرة الوطنية ضللت بعضهم أيضا ، فزعموا افكا بأن شعر التروبادور نشأ أول ما نشأ في شمال فرنسا ، لا في جنوبها ، محاولين بذلك نفى كل صلة بين شعرائهم وشعراء الأندلس ، ولم ينصف العرب في ذلك غير الإيطاليين الذين أقروا من بادئ الأمر بأن جذور شعرهم نبتت في الأندلس . ولم يكن دانتى ينقصه وعى ذلك (١) . وقد خصص الكاتب الإيطالي « بريبرى » فصلا كاملا في كتابه « منابت الشعر المقفى » لشرح كيفية انتقال ذلك الشعر الغنائي - أي شعر التروبادور من الأندلس العربية إلى إيطاليا ورواجه بين أرجائها .

---

(١) كتاب الشعراء التروبادور سالف الذكر .



والذى يزيد هذا الموضوع جلاء قول « بريفو » فى أول صفحة من كتابه ( الشعراء التروبادور ) « نشأ لون جديد من الادب فى جنوب فرنسا خلال القرون الوسطى ، على حين كانت ملاحم الاغريق الوثنية فى ذلك الوقت هى التى تستثير مشاعر الناس ، وهذا اللون الجديد أجنبى كذلك عن فرنسا؛ وقد جلبه اليها الشعراء التروبادور الذين أغنوا به اللغة الفرنسية المحلية وأحدث فى المجتمع الفرنسى الاقطاعى أثرا بليغا بما عبر عنه من عواطف طاهرة سامية ، وذلك بعد أن أنف ذلك المجتمع من بربريته ، متأثرا بالتيار الحضارى المذهب الذى هب عليه من الاندلس العربية . . وبعد أن تهيأ لتذوق هذا الشعر المذهب » .

ونختتم أسانيدنا بقول «بيرديه» فى كتابه ( القصة فى سبعة قرون ) : « نشر العرب فى الاندلس خلال القرن العاشر الميلادى حضارة جديدة أصيلة ، وابتدعوا شعرا غنائيا انسانيا حمله شعراء التروبادور الى الشمال ، وتدل المراجع التاريخية على أن القصور الاندلسية ؛ بعد أن احتلها الاسبان ، كانت تذخر بشعراء العرب الذين وقعوا فى الأسر ، على حين كانت الحرب لا تزال دائرة بين الاسبان والمسلمين . . ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الادب الفرنسى ذكر هذه الوقائع الثابتة بالأدلة المسجلة » .

واذا كان الأدب الأوروبى قد تغير فجأة فى أواخر العصر الوسيط واتخذ طابعا عربيا بحثا ؛ بعد أن كان

على نقيض ذلك ، وثبت أن هذا التغير لم يحدث الا عقب غزو الشعر العربى لبلاده ، فهل يشك أحد بعد ذلك فى أن الشعر العربى المذكور هو الذى طوره ، وغير اتجاهه الى الوجهة التى مكنته من بلوغ المكانة التى بلغها ؟

ونذكر الآن تلك الوقائع التى يعرفها القارىء المصرى عن سطر بعض المؤلفين الأوربيين القدامى ، الذين نهضوا بأدب بلادهم - مثل « بوكاشيو » و « دانتي » و « دون جوان » و « شوسر » وغيرهم - على القصص والمؤلفات العربية، وسرقة بعضها وافادة ذلك فى تلوين الأدب الأوربى باللون الجديد الذى أعانه على التطور والازدهار . . . فان ذكرها بعد كل ما تقدم يدعم وجهة النظر التى تؤيدها ، ويزيد فضل العرب المنكور وضوحا .

---

## خصائص الأدب العربي

---

**ظل** شعراء التروبادور يطوفون بأنحاء أوروبا خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط وينشدون الناس منظوماتهم التي جلبوا بعضها من الأندلس ونظموا بعضها الآخر على غرار الأول ، وإذا بقي شيء من الشك في أصل هؤلاء الشعراء فإن اسمهم نفسه يدل عليهم فكلمة تروبادور ليست في أصلها « كلمة » ؛ ولكنها « عبارة » مركبة من كلمتين ، أولاهما كلمة « تروب » ومعناها بالأسبانية فرقة - والمقصود فرقة غنائية - وثانيتهما كلمة « تدور » وهي عربية واضحة المعنى ، فالتروبادور هي فرقة من الشعراء المنشدين تدور في البلاد لتنشده شعر أعضائها .

وسنحاول الآن أن نتحقق من أمرين ، أولهما أن شعر التروبادور ظل محتفظا حقا بخصائص الشعر الذي نبع

منه ، وثانيهما أنه أيقظ فعلا نهضة أوروبا الادبية فى الحقبة  
الذكورة •

أشرنا فيما سبق الى أن شعر العرب كان يتميز عن  
شعر الاغريق الوثنى الاسطورى بأنه واقعى ، يعكس الواقع  
المحيط به فى دقة وصدق ، وبأنه انسانى يحلل مشاعر  
الانسان الرقيقة فى عمق ووعى ، وطبيعى لا يعرف  
الاساطير ولا يلجأ الى التضخيم والتهويل • فهل احتفظ  
شعر انثروبادور بهذه الصلوات ؟ نعم ، لقد احتفظ بها •  
وسنستشهد على ذلك ببعض أقوال الأوربيين أنفسهم •  
تضمن كتاب « القصة فى سبعة قرون » ؛ وقد أشرنا  
اليه سابقا ، فصلا ، قارن فيه مؤلفه أدب الاغريق ، الذى  
تأثرت به أوروبا فى العصر الوسيط بالادب الجديد الذى  
نشأ فى أوروبا ، ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى :  
« ليتحدث من يشاء كما يشاء عن هذه الانسانية المستفيضة  
التي تفجرها مفاتن الطبيعة ؛ وعن الجدة اليانعة فى ذلك  
الشعر المنقطع النظير ••• لا سيما عندما يصف اضطراب  
قلب المرأة حين تقع فى حبال الحب •• ان عظمتها لاتصل  
من قريب ، أو بعيد بذلك القلق الذى ينتاب الانسان خوفا  
من القدر المكتوب ، وانما تقوم على الايمان بالحياة ، والتغنى  
بسحر الربيع •• لقد تبدل العالم الاغريقى الوثنى فى هذا  
الشعر الجديد ، وبدأ صوت المرأة يتردد فى أبياته ، على  
حين كان هذا الصوت لا يعلو فى الشعر القديم الا لينادى  
بالويل والثبور ••• » •



وسنكتفى باقتطاف نتف قليلة من الشعر العربي  
القديم ، لنُدلل على أنه كان يتضمن الصفات والمعاني نفسها  
التي رأى المؤرخ الفرنسي في النبذة السابقة أن شعر  
التروبادور والشعر الفرنسي الذي حاكاه حينذاك كانا  
يتضمنانها . قال الشاعر العربي القديم يصف الشاعر  
الإنسانية التي فجرتها مفاتن الطبيعة :

ولمّا نزلنا منزلا طله الندى  
أنيقا وبسستانا من النور حاليا

أجد لنا حسن المكان وطيبه  
منى فتمنينا .. فكنت الأمانيا

وقال آخر يصف الربيع وصفا يكاد يحويه وينطقه :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا  
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقال آخر يصف المرأة حين يملكها الحب :

بنفسي وأهلي من اذا عرضوا له  
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل  
به سكة حتى يقال مريب

وهل ريبة فى ان تخن نجيبة  
الى الفها أو أن يحسن نجيب ؟  
وقال بشار يصف هذا الصمت الناطق :  
واذا قلت لها جودى لنا  
خرجت بالصمت عن لا ونعم  
والعربى لا يشغل باله بالغيبات والأعيب القدر ؛  
وانما تستحوذ على لبه مطالب قلبه ، ومطالب الحرب والذود  
عن الحياض .

قال المتنبى :  
وللغيد منى ساعة ثم بينتنا  
فلاة الى غير اللقاء تجاب

ثم يعود فيقول :  
لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي  
وللحب ما لم يبق منى وما بقى  
وما كل من يهوى يعف اذا خلا  
عفا فى ويرضى الحرب والخيل تلتقى  
والمرأة العربية ليست أمة تباع فى سوق الحب أو  
سوق الزواج ، ولكنها ذات مكانة تعتز بها وتحافظ عليها  
وذات تمنع ودلال قال البحتري :  
وهو بالذل مستبد ( م )  
وبالحسن منفرد .

والشعر العربي 'يسترسل' في وصف دلال المرأة  
وحصانتها استرسالاً يلفت النظر ، ويغنى عن كل استشهاد  
ويتردد صوتها في نواحيه عالياً صريخاً جريئاً • بيد أن  
جراته تتسم بالحفاظ على الشرف والكرامة •

قال أن فراس :

تقول لنا من أنت وهي عليمه  
وهل بفتى مثلى على حاله نكر ؟  
فقلت كما شئت وشاء لها الهوى  
قتيلك • • قالت أيهم فهم كثر ؟

ولا تأنف المرأة العربية من الاعتراف بحبها ، رغم  
أنفتها وكبريائها ؛ ذلك لأن حبها شريف عفيف لا يدعو إلى  
الاستحياء •

قال عمر بن أبي ربيعة :

وقالت وقد لانت وأفرخ روعها  
كلاك بحفظ ربك المتجبر  
فأنت أبا الخطأب غير منازع  
على أمير ما مكثت مؤمر

والعربي لا يعز المرأة فحسب ولكنه يضعها في أعلى  
مكانة ، ويؤثرها على أهله وقومه ، والشعر العربي مليء  
بالأدلة على ذلك ، فأنت تجد مثل هذه العبارات تتردد فيه  
بكثرة « بأبي أنت ؛ وبأمي ، وبأهلي وحياتي » • •

ان الشعر العربي واقعي من ناحية تسجيله للواقع  
فالشاعر العربي يصف حبيبته ٠٠ وحصانته وناقته ،  
والصحراء المترامية الأطراف ، والنجوم المتألقة في السماء  
العربية الصافية ، والرياض والغياض المخضلة وسط  
اليباب ، والذئاب العاوية تحت جنح الظلام الرهيب ٠٠٠  
انه يصف كل ما يحرك مشاعره وصفا مباشرا صادقا  
لا يستعين بالرمز أو الاسطورة وهو يحلل عاطفة حبه  
تحليلا دقيقا واعيا ٠٠ قال ابن الطثرية :

وأذهب غضبانا وأرجع راضيا .  
وأقسم ما أرضيتني بين ذلك  
وقال آخر :

أحبنا على حب وأنت بخيلة  
وقد زعموا ألا يحب بخيل !  
وهو ينتقى التشبيه الخلاب في وصفه ٠٠ قال  
البحثري :

ويوم تأوهت للبين وجدا  
وكفت عسرتين تباريان  
جرى في نحرها من مقلتيها  
جمان يستهل على جمان  
وقال آخر :

كأن ميثاز النقع فوق رعوسنا  
وأسيافنا ليل لهاوى كواكبها



وبعد أليست خصائص هذا الشعر هي الخصائص التي  
اتسم بها الشعر الأوربي يوم أن تحول من شعر وثني الى  
شعر واقعي انساني ؟ . . أليست هي بعينها الخصائص  
التي تحدث عنها « بييرديه » عند وصفه للأدب الفرنسي  
الجديد الذي ظهر في أوائل القرن الحادي عشر ؟ . . .  
وهي التي ذكرناها في أول هذا الفصل ؟ . .

بقي الشطر الثاني من هذا البحث ، وهو الخاص  
بالنظر فيما إذا كان الأدب الأوربي قد تأثر في الحقبة  
التي نتحدث عنها بشعر التروبادور ، واستقام بهذا التأثير  
واهتدى به الى الطريق السليم الذي انتهى به آخر الأمر الى  
النهضة الأوربية المعاصرة .

ان الحكم في هذا الموضوع جدير أن يترك الحجة  
فيه ، ولذلك ندعه للمؤلف « بييرديه » الذي قال في  
ص ٩٥ من كتابه السالف الذكر : « عرفت الطبقة الفرنسية  
ذات السلطان في مطلع القرن الثاني عشر ذلك اللون الجديد  
من الحب العف السامي ؛ وخضع الادب فيه كل الخضوع  
لاتجاهات الشعراء التروبادور » .

وعاد المؤلف في صفحة ٩٧ من كتابه الى هذا الموضوع  
فقال : « . . . ونشأ في أوربا لون جديد من الشعر  
يفوق شعر الغزل السابق عليه ، ويتحاشى ذكر آلهة الملاحم  
القديمة ، وأساطير أوقيدي ؛ ويستبدل بها الحقائق الواقعية »

ثم حسم الأمر بقوله فى الصفحة ٤١٥ من ذلك الكتاب  
« يستطيع المنقب فى القصص المنظومة التى انتشرت فى  
فرنسا خلال تلك الحقبة ، وفى منظومات التروبادور  
القصصية ، أن يرى وجه الشبه القريب بينهما ، فالشخص  
القصصية مشتركة هنا وهناك ، وكذلك يتشابه ترتيب  
القوافى فى هذا الشعر وذاك » .

بهذا القول قطع هذه الحجة بمحاكاة الشعر القصصى  
وهو اللون الادبى الغالب فى ذلك العصر ؛ لشعر التروبادور  
النابع من المصادر العربية . ولا نحسب الامر يحتاج بعد  
ذلك الى تدليل جديد ، لا سيما وصاحب القول الفصل فيه  
أوربى ؛ فهو بعيد عن شبهة محاكاة العرب .

ونتطرق من ذلك الى ملاحظة قد لا تفوت القارئ  
الممحصى وهى أن الأدب الاوربى الجانح الى الخيال الشاطح  
المستعين بالرمز ، والمترفع عن الواقع وحقائقه الموضوعية  
هو من رواسب الأدب الاغريقى الوهمى ، على حين أن أدب  
أوربا الواقعى امتدت جذوره الى الأدب العربى القديم .

---

## أثر البيئة في الحضارة العربية

---

**آن** أن نفى للمقارىء بوعدنا ونبحث في الاسباب الأولى التى طبعت الحضارة العربية بذلك الطابع المتميز الذى شرحناه .

من المعروف أن العرب كانوا فى الجاهلية متفرقين قبائل وبطونا وأنجادا فى شبه جزيرتهم الصحراوية القليلة الموارد والمراعى . وقد دفعتهم هذه القلة فى الموارد والمراعى الى التكالب عليها . والحرب فى سبيل الفوز بها ، أو الذود عنها ، أو الاخذ بالثأر ، أو نجدة الصديق ؛ وغوث الملهوف ولم تلبث الحرب أن أصبحت ديدن تلك القبائل ثم أدت الى النتائج المحتومة فى مثل تلك الحال ، فأصلت صفات الشجاعة والجلد فى شباب القبائل ورجالها . ولم تكن القبائل المغيرة المنتصرة تكتفى باغتصاب المراعى وموارد الماء والأسلاب ؛ ولكنها كانت تسبى النساء أيضا . ومن ثم

نما في صدور فرسان القبائل شعور بمسئوليتهم عن سلامة  
حياتهم ونسائهم على السواء . وتوطد بينهم تقليد من  
أهم تقاليد الفروسية وهو التضال في سبيل أمن المرأة  
وشرفها وعزتها . . . ومن ثم أيضا سمت مكانة المرأة التي  
لم تعد تقنع بحالتها ، ولكنها عملت على زيادة منزلتها وتوطدا  
فتعلمت كيف تعز وتذل وتحمل وتتهذب . ويكون لها  
رأى مسموع . واردة مسلم بها على نحو ما شرحنا في  
الفصل الذي خصصناه لها .

وكانت القبائل في البلاد غير العربية حينذاك  
تخشى القحط ؛ وترجف خوفا من ثورات الطبيعة المتقلبة  
ومن المرض والموت والأحلام وغير ذلك من الظواهر التي  
لا يستطيعون تفسيرها وتعليلها، وتستعين بالدعوات والسحر  
لاسترضاء ما تتوهمه من قوى شريرة تريد بها ضرا على حين  
عرف رجال القبائل العربية أنهم يستطيعون أن يحققوا  
مطالبهم . ويوفروا حاجاتهم ، ويدفعوا الشر عنهم بحد  
سيوفهم دون استجداء العطف والرفق من أرواح الشر  
التي تتحكم في الأرزاق ، وتصرف الأقدار .

وعندما اهتدى الإنسان الى الزراعة وفتح الأرض  
بالفعل ؛ احتاج زرعته الى القدر الكافي من الماء والجو  
الملائم ، فظل في حاجة الى تلك القوى المجهولة لتصون  
زرعه وتنميته ، وتصون حياته ، وصحته وتنمي ذريته .



وأُتاحت له الحياة الزراعية الجديدة منادح من وقت  
الفراغ للتأمل في الواقع ومحاولة تفسيره . وأشبهت  
ظواهر الطبيعة الغريبة المجهولة الأسباب خياله الخامد .  
وبذلك ابتدع الأساطير التي راجت بين المجتمعات  
الزراعية الأولى ، بعد أن أصبحت ظروفها أكثر ملاءمة للتأمل  
من ظروف أسلافها القبليين . ودليل ذلك ما حققه الأدب  
الأسطوري في مصر القديمة من ازدهار مسير لازدهارها  
الزراعي . . . . وقد اقتبس الإغريق قصصها الأسطورية  
التي ترامت اليهم عن طريق الفينيقيين وغيرهم من الأقوام  
الذين عاشوا بين البلدين ، وتنقلوا من أحدهما إلى  
الآخر وتطورت الأساطير المصرية بعد انتقالها إلى اليونان  
واتخذت الطابع الذي لازم الأوضاع لتلك البلاد على نحو  
ما شرحناه سابقاً .

ولكن شأن العرب كان يختلف ، كما أوضحنا عن شأن  
تلك البلاد وثقافتهم عن ثقافتها لأن ظروفهم الاقتصادية ؛  
وأوضاعهم العمرانية كانت تختلف عن ظروفها وأوضاعها  
فعيون الماء والمراعي القليلة التي أعوزتهم كانت تؤخذ  
بعد السيف ، والذود عنها كان يعتمد على حد السيف .

واحتاج اقتتالهم المتواصل في سبيلها إلى الجياد  
والنياق . فلا عجب إذا كان أهم ما يشغل بال العربي حله  
سيفه ، وظهر جواده وناقته ، ولما كان الشعر تعبيراً عن  
أهم ما يختلج في صدر الشاعر من أحاسيس فلا عجب كذلك  
إذا امتلأ شعره بوصف شواغله هذه .

كان رجال القبائل العربية يخوضون المعارك لا ليحموا  
أموالهم وحياتهم فحسب ؛ ولكن ليصونوا نساءهم أيضا  
- وقد أشرنا الى ذلك - ومن ثم عرفت المرأة العربية فضل  
رجلها ، وأكبرت شجاعته ، وقدرت حمايته لها وصونته  
لكرامتها . . . فأصبح في نظرها حامى الحمى ، والبطل  
المغوار . وأحدث تقديرها له أثرا عميقا في نفسه وحرك  
مشاعر المروءة والنجدة والنخوة ؛ وازداد حماسة وشجاعة

وهكذا لم تعد علاقته بامرأته مجرد علاقة جسدية ،  
ولكنها أصبحت حبا من نوع جديد عجيب . . حبا ساميا  
يبعث أنبل العواطف الانسانية وأسمائها . ومن ثم نشأ  
الحب العذرى كما نشأت تقاليد الفروسية وخلق ذلك لبه  
واستحوذ على مشاعره ، فعبر عنه في شعر الغزل الذى  
اشتهر به الأدب العربى ، والذى يعد أفضل شعر في نوعه  
على الإطلاق . ولم يكن شعر الفخر عند العرب أدنى فنا  
وأقل شهرة من شعر الغزل ؛ لا سيما بعدما تبينوا أثره  
الساحر فى اشعال الحماسة ، وتأصيل صفات الفروسية  
فى حماة الحمى .

ومن الآثار التى ترتبت على ما تقدم أن العربى لم  
يعد يخشى الأحلام والأمراض والموت كما كان يخشاها غيره  
بل لم يعد يشغل باله بها وبذلك لم يصور له خياله  
الأوهام التى كانت تتراءى لغيره . ولم تحصد الخرافات  
والاساطير مجالا للاستفحال فى ذهنه . فنظر الى الواقع نظرة

سليمة صادقة ، وصوره في شعره على حقيقته دون أن  
تموه أصائل الاوهام .

ولا نكر أن العربي الجاهلي كان يعبد الاوثان ،  
ويؤمن باللات والعزى وغيرهما من أربابه ؛ ولكن دينه  
الوثني لم يشغل باله كثيرا .

فهو لم يكن يذكر آلهته الا عندما تحقيق به الهزيمة  
ولكنه سرعان ما كان يدرك نصرا الا اذا أهاب بشجاعته ،  
واعتمد على حد سيفه . . لقد كان يحارب خصما يعرفه  
ويعرف وسائل قهره . بعكس أقوام العصر القديم الذين  
كانوا يغالبون عناصر الطبيعة التي يجهلون بها . . ولذلك  
تحرر من الخرافة التي كانت تخيم على أذهانهم .

هذه هي الظروف التي سمت بمكانة المرأة عند العرب  
وحركت فيهم مشاعر الفروسية ، وأصلت تقاليدها ،  
وحررت أذهانهم من الخرافات والاهام فصانت شعرهم من  
لوثة الأساطير وحفظته سليما واقعيا صادقا . . وقد  
يعترض معترض فيقول ان الامم غير العربية كانت في ذلك  
الزمان تخوض الحروب كالعرب فلماذا لم تتأصل فيها  
صفاتهم ؟ . . . ولماذا تتحرر من لوثة الخرافات ؛ ولم يتحرر  
أدبها من طابعه الخرافي ، ويتجه الى الواقعية ؟ . وليس الرد  
على هذه الاسئلة مما يغيب عن بال المدقق . فهناك فرق بين  
الحروب التي تشتبك فيها الشعوب . فلا يتعرض للخطر  
الا من كان في خط القتال . وبين الحروب المتلاحقة التي

تنشعب بين قبائل العرب فلا تنعم أية قبيلة بيوم واحد  
تأمن فيه على نفسها وتريح أعصابها المتوترة . كان العربي  
في قلق دائم على امرأته وعلى نساء القبيلة وحياتها وأموالها  
وكان في حاجة الى الاغارة المتوالية على خصومه ليفسوز  
بالأسلاب ، ويمد بها قومه ، وكان عليه ان يظل متأهباً  
لينقذ جارا ؛ أو لينصر مظلوماً ومن ثم أصبح فارساً ،  
مهمته الضرب بالسيف لتحقيق الأغراض النبيلة . وأيقن  
أن هذه الأغراض لا تتحقق بالتوسل الى الأوثان ، ولكن  
بالاعتماد على حد سيفه ، وعلى عزيمته وشجاعته . فاطرح  
الآوهام بعد وقوفه على هذا الواقع ، وأدرك حياته على  
حياتها حقيقتها ، واستطاع بذلك أن يقيم ثقافته على ذلك  
الأساس السليم الذي أعان العالم على بناء صرح الحضارة  
الحديثة .



## كلمة ختامية

فنتهى مما تقدم الى أن الأمم كان بعضها يتلقن الثقافة عن بعض وهكذا دواليك . فالأغريق تلقوا مقومات حضارتهم عن المصريين والعرب . . . ثم عاد العرب فتلقوا بدورهم فنونا من ثقافة الأغريق . ثم صارت لكل من هاتين الأمتين حضارة ذات طابع خاص بها ، وأن الحضارة ذات الطابع العربى هى التى أثرت فى أوروبا الغربية ، وهدتها الى السبيل الذى انتهى بها الى ما انتهت اليه اليوم . . . ثم ان كل حضارة بذاتها لا تبقى فى الأمة التى نشأت بها على حال واحدة ولكنها تتطور على الدوام . وقد تسير قدما أو يطرأ عليها من الظروف الخارجية ما يعود بها القهقري الى وراء .

وليس من الغرض من هذا الكتاب أن يثير الغرور فى صدر قومنا ويغنيهم عن السعى لتحقيق أمجاد جديدة باستشعار مفاخر الأمجاد الماضية ، والاكتفاء بها . وإنما

الغرض منه أن نعلم نحن العرب أن أجدادنا أسهموا بأكبر نصيب في بناء مسرح الحضارة الراهنة .

فهى تراثنا قبل أن تكون تراث سائر الأمم التى أسهمت فى تشييدها . ولا غضاضة علينا فى اقتباس مقوماتها النافعة الملائمة لنا ؛ على أن نطورها فلا نلحق بالركب الحضارى فحسب ولكن نسابقه ونفيدها كما نفيده منه .

# فهرس

الموضوع	الصفحة
تزاوج الثقافات ..	٣
الاغريق والحضارة ..	١٨
بذور الحضارة ..	٢٢
صفات العرب الحضارية ..	٥١
المرأة العربية والحضارة ..	٥١
تقاليد الفروسية العربية ..	٦٦
الفنون العربية ..	٧٣
الأدب العربي والحضارة ..	٨٣
خصائص الأدب العربي ..	٩٥
أثر البيئة في الحضارة العربية ..	١٠٣
كلمة ختامية ..	١٠٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٥٧٢/١٩٧٥-







الشمس : ١٠ قروش

### \* هذا الكتاب

إذا كانت الحضارة الأوروبية قد بهرت بعلمها ومعارفها وتقدمها جيلا بعد جيل وفتن بها العلماء والأدباء فنهلوا من نبعها الصافي ومعينها الذي لا ينضب فهل نشأت هذه الحضارة من فراغ ولم تتأثر بحضارات سابقة ؟ كلا فالحضارة العربية والمصرية التي عمرها آلاف السنين لها الفضل في تلك الحضارات الحديثة وهذا الكتاب يسوق الأدلة التي لا تقبل الشك في فضل الحضارة العربية على الأوروبية وكيف انتقلت إليها من أسبانيا . ومن واجب كل عربي أن يعرف ذاته تفتحت فيه الأذهان على قيمة العرب وقوتهم وحضارتهم

العدد القادم :

المستقبل البيولوجي للإنسان

تأليف : د. محمد مصطفى الفوالى

Bibliotheca Alexandrina



0678864

097  
27  
621  
75